فنجان قهوة

قصص قصيرة

مجدي توفيق



2013

فنجان قهوة

قصص قصيرة

تأليف: مجدي توفيق

الطبعة الأولى ٢٠١٣

رقم الإيداع: ١٨٥٨٠ - ٢٠١٣

الترقيم الدولي: ٩٨٠-٩٧٧-٦٤١١- ٦٢-٥

الإخراج الفني: محمد غريب

mohdghrib@gmail.com

تصميم الغلاف: إيمان غريب

التصحيح اللغوي: محمد عبدالغفار

دار روعة للطبع والنشر والتوزيع

المدير العام: هبة الشرقاوي

هاتف: ٠٠٢٠١١٤٠١٧٨١٤٤

darrawaa@yahoo.com



إهـــــداء

إلـى الـنفـس الحـالمـة الـتـائـهـة..

إلـى الـروح المـعـذبـة.. إلـى أجـنـحـة الحـب

المـنـكـسـرة.. فـي زمـن الـقـهـر..

مجدي توفيق

السجينة

رغبة مفاجئة تملكتها في الانطلاق.. في الحب.. في الحياة.. عبر الطرقات راحت تأخذ طريقها وكأنها تهمس في أذن الأرض.. توقظ العالم النائم حولها في استسلام، وحين استقرت الشمس على عرشها بكبرياء وثقة.. أرسلت بأشعتها القوية، كانت قد استقرت الفكرة في رأس ياسمين:

- نعم.. لا بد أن أعيش.

قطعَت طريقًا طويلاً دون أن تشعر بمرور الوقت.. راحت نسمات الصباح الندية تداعب وجهها الجميل.. تحرك خصلات شعرها الأسود فتزيدها جمالاً وإحساسًا بالحياة وإصرارًا على التشبث بحقها في أن تحياها.

أسرعت خطواتها في رشاقة وخفة، وكأن السير لم يعد يكفيها، بل رغبت في الطيران.. الانطلاق بأسرع ما يمكن.. أن تفجر كل الطاقة المكبوتة داخلها منذ سنوات.

أحست فعلاً أن قدميها لا تكادان تلامسان الأرض.. أحست بأن هذا الصباح أطلق سراحها.. انطلقت روحها الحبيسة من أسرها.

تساءلت:

- هل كانت تحتاج لكل هذه السنين كي تكتشف - على الرغم من قراراتها المكرهة دائمًا - أنها

قذفت عيناها بدموع متسارعة.. سرعان ما مسحتها في أسى.. وكأنها دفقة أحزان كان لا بد أن تخرجها سريعًا ثم تمحو أثرها..

عاشت عمرها «سجينة»؟! هل يمكن أن تطول الرحلة بإنسان وتمتد عبر محطات كثيرة لتصل في نهايتها إلى محطة لم يقصدها أو ترسو السفينة على الشاطئ المقابل لأحلامها وآمالها التي تحلم أن تراها وتلمس يداها أو تطأ قدماها أرضَها؟! منتهى الألم!! منتهى القسوة!!

ملامح الحزن غطت وجهها.. راحت خطوط الأسى وإحساس الشجن يبحر داخلها.. تذكرت أيام الضعف والانكسار والقرارات المكرهة والأحلام المهدرة.. سنوات السجن الطويلة بإرادتها أو رغمًا عنها.. سنوات السجن التي مارست فيها دور السجينة السجانة في وقت واحد.. قذفت عيناها بدموع متسارعة.. سرعان ما مسحتها في أسى.. وكأنها دفقة أحزان كان لا بد أن تخرجها سريعًا ثم تمحو آثارها.

- من اليوم لا مكان للدموع في حياتي..

ابتسمت وراحت تتصفح ما حولها.. قررت ألا تخفي ابتسامتها.. سوف تملأ الدنيا بحبها للحياة.. سوف تجبر أيامها الحزينة على الاعتذار.. بل سوف تجبرها على أن تنسحب صاغرة بكل أوجاعها.. بكل آثارها دون قيد أو شرط. دقت عنقها ذكريات الأيام الحزينة.. تباطأت خطواتها.. تثاقلت.. أسرعت مرة أخرى في تحدٍّ.. في تصدٍّ.. لكل ما يشدها مرة أخرى إلى سجنها القديم «لا.. لا أحزان بعد اليوم»..

قررت أن تقلع بسفينتها من سجن الأحزان إلى الشاطئ الآخر.. إلى «الحلم».. تساءلت من أين تبدأ؟ من أين الطريق الصحيح حتى لا تصطدم بأرض وعرة أو أمواج عاتية أو عاصفة هائجة؟ تساءلت عن الطريق الصحيح حتى تأمن أن تصل سفينتها إلى الأمان..

قررت أن تُسقط كل الأسوار.. المخاوف الكثيرة التي تحاصرها.. أن تترك نفسها للحركة.. للطيران.. أن تكسر كل القيود التي تلتفّ حول قدميها.. تقبض على عنقها.. تحبس أنفاسها.. تسجن قلبها في زنزانة الأحزان!

تساءلت لماذا تصدر حكمها مسبقًا وتفترض فيه أسوأ الاحتمالات؟! ربما تأتي الرياح هادئة في هذه الرحلة.. ربما لا يلقاها أحد القراصنة ويأخذها

غصبًا إلى وكره.. فقد انتهى عهد القراصنة.. لا بد أن تنتزع الخوف من داخلها.. أن تهنأ بمولد الكائن الجميل داخلها.. لا بد أن تشعر بحقها في الاحتفال به والاستمتاع بقدومه بعد غيبة كادت خلالها تفقد الأمل في عودته.. على الرغم من أن اسمه «أمل»! طاقة التحدي القوية.. طاقة الحب المتدفقة الفياضة.. جعلتها تقرر أن تخوض رحلتها الجديدة بلا توقعات.. بلا مخاوف.. بلا قلق.. بإصرار وشجاعة.. قادت «ياسمين» سفينتها التي انحرفت عن مسارها كثيرًا في محاولة صعبة في عرض البحر.. وسط الرياح.. وكأنها قبطان ماهر يمسك ببوصلته بوعي وإدراك.. في إصرار على الوصول بأمان إلى الشاطئ المقابل.. الأمل المنشود.. راحت تنادي في عشق:

- سأدنو منك أو تدنو مني.. أو أُلقي بنفسي وسط الأمواج أصارعها وتصارعني حتى أصل إليك.. أمسك بيدي الحلم.. أدوس بقدمي شاطئ الأمل.

* * *

وسط ضجيج السيارات وزحام البشر، وعجلة الحياة التي تعلن مولد يوم جديد.. أيقظتها سخونة الشمس من استغراقها الطويل.. استقبلت يومها بقلب جديد.. قلب مفتوح للحياة.. للحب.. للأمل الجديد.

(تمت)

الغول وشجرة التوت

أنا لا أملك سوى الأحلام.. حتى الأحلام تتلاشى أمام وجه أبي الذي يتصبب عرقًا وهو يضرب الأرض بفأسه أجيرًا في أرض شيخ البلد.

(1)

في شوارع المدينة.. زحام البشر يبتلع البيوت الصغيرة.. تتعانق المباني الشاهقة كالأفاعي المتربصة.. الباعة الجائلون يفترشون الأرصفة والحواري.. وجوههم لا تبدو غريبة على ذاكرتي.. قد أعرف بعضهم من الذين وفدوا من قريتنا أو القرى المجاورة.. أصوات زاعقة متداخلة.. غير مفهومة وسط نشاز موسيقي وكلمات سوقية راحت تخترق الزحام من أحد الأكشاك الراقدة في كل مكان.. فوق الأرصفة.. سيمفونية رتيبة عشقها البلهاء من حرافيش الميكروباص.

أيقظني من استغراقي صوت «عليوة» صبي مقهى الليثي وهو يحمل صينية الشاي بيد وباليد الأخرى الشيشة..

تعودت الجلوس على مقهى حارة الليثي وسط الوحدة والقرية التي تطبق على أنفاسي في حجرتي الصغيرة القابعة على سطح الدور الرابع بمنزل الحاج «أبو حسين».. لا يؤنس وحدتي سوى مجوم غادرت قريتي راغبة في البقاء معي.. أو قد يؤنسها جيراني في «عشة» الست «جمالات» زوجة الحاج «أبو حسين» حيث الدجاج والبط والإوز وشجارهم المستمر طوال النهار والليل.

ربما يكون ذلك أرحم بكثير من صخب الحارة.. لكني تعوَّدت الجلوس هنا وسط الهواء الطلق وكوب الشاي بالنعناع.

- الشاي بالنعناع يا أستاذ.

يضع «عليوة» الشاي أمامي وكوب الماء وينطلق يغني بصوته الجهوري:

- «يا بنت السلطان حني على الغلبان.. الميه في إيديكي وعليوة عطشان...».

يقاطعه المعلم إسماعيل الليثي صاحب المقهى:

- «اقفل بقك يا وله وشغَّل الست»..

ويلقى كلام المعلم إسماعيل الترحيب لدى رواد المقهى.. وينطلق صوت الست في أغنية «لسه فاكر»:

- «لسه فاكر قلبي يديلك أمان..

ولا فاكر كلمة هتعيد اللي كان..

ولا نظرة توصل الشوق بالحنان..

لسه فاكر كان زمان»..

«تنهيدة» تخرج من أعماقي.. تأخذني مع صوت «الست» وسط نسمات رقيقة كنت أسبح فيها هناك تحت شجرة التوت القابعة على رأس أرضنا حارسة لها من عيون الحاسدين واللصوص وأصحاب الفضول.. عيناي تتأملان البساط الأخضر المترامي حولي.. قطرات الندى القصبة وعطر الخضرة.. يدور أمامي ثورنا بالساقية في دائرة لا تنتهي إلا آخر النهار..

(2)

كعادتي على السرير المتهالك.. منكمشًا.. قابعًا.. وبيدي كشكول محاضراتي مستسلمًا لانقطاع التيار الكهربائي.. مستعيضًا عنه بضوء لمبة الكيروسين «نمرة 10».. يتمدد حولي ضوء المصباح منقذًا إياي من الغرق في بحر الظلام والاستسلام للنوم.. وعوضًا عن ضوء شمعة تحترق بلا ثمن.. بلا يد توقف نزيفها المستمر وما عساي أن أفعل وأنا مثلها قد أحترق يومًا وأتلاشى غبارًا أو أطلالاً.. تلك سنة الحياة.. والحقيقة أنني أتعذب من توسلات شمعتي

ودموعها ففضّلت هذا المصباح..

- «انت منورنا يا أستاذ»..

تفزعني كلماتها وحصارها الدائم لي.. الست «جمالات» بكرم ضيافتها.. نظراتها تثير بداخلي علامات استفهام.. حيرة شديدة أمام محاولة فك رموز تساؤل أكثر حيرة يحاصرني.

أكذّب نفسي حين تتحسس يدي عند مصافحتي.. حين تلتصق بجسدي عند صعودي درجات السلم.. يحاصرني الملعون ليلاً ونهارًا.. يتراقص حولي نشوة. يأسرني.. يمزقني فحيح صوتها وأكذّب نفسي.. تتراقص أمام نافذة الحجرة.. تكشف عن جزء أو أجزاء من جسد مترهل.. أغمض عينيَّ.. أنكر وأكذّب نفسي.. الصورة تتكرر والراقص حولي منتشيًا.. تزداد سهامه المسمومة.. يسلبني حنينًا بداخلي إلى شجرة التوت.. رفيقة عمري.. أشكو همومي وهواجسي بين ضلوعها.. لا أنسى يوم فراري مذعورًا إليها.. أسألها إجابة ما زالت تتردد في أعماقي.. ليلة أن صحوت فجأة على يد تتحسس جسدي.. تعتصرني.. أسقط في نيران رغبة محمومة وأنا صغيرٌ لم أبلغ بعدُ الحلم.. صرخت مفزوعًا..

- «ما لك يا سمير؟ أنت خايف؟ تعالى.. تعالى جنبي».

تحتضنني «أم كمال» - إحدى قريبات أمي وضيفتنا الأرملة - تبيت في حجرتي تجرني إليها وأنا أتراجع.. أتخلص من رعشة تجتاح جسدي.. أتراجع باكيًا مذعورًا.. ألقي بهمومي.. تأخذني فروع شجرتي.. تطعمني حبات التوت الطازجة.. تمسح دمعي.. أتمدد في أمن وسكينة تحت ظلالها.

- «انت كبرت وبقيت راجل يا سمير».

ما زالت أنفاس المرأة المحمومة ترقد داخل ذاكرتي.. تلوح صورتها وتخبو.. حين تتسلل في ظلام الليل همسات وضحكات أبي وأمي.. تساؤلات كثيرة جاثمة فوق صدري.. أشعر بخجل شديد حين أرى أمي ترتدي سروال النوم أو يمازحها أبي دون أن يشعر بي.. رغبة لازمتني والساعات تتمزق تحت ظلال الشجرة وصوت أبي يطاردني:

- «اوعى من الحرام يا كمال.. الشيطان وحش يا ابني».

تتعانق بداخلي تساؤلات الماضي ورغبات في أعماقي ما تلبث أن تخبو.. ثم ينفجر بركان وسؤال يتحرق شوقًا لإجابة.. لعلاج شافٍ.. الصمت كئيب.. كلمات أبي تحفظني.. ترشدني وأنا أتوارى من نظرة عين تلقيها فتاة أو عين امرأة ترقبني.. أتأوَّه وأتوه.. لمجرد أن تسألني امرأة عن عنوان.. تفضحني عيناي وأغرق في «شبر ميَّه».. بل في بحر من خجل لمجرد أن تسألني زميلة عن جدول المحاضرات.. أتلعثم.. أتراجع.. أنسحب في هدوء.. أتساقط عرقًا وكلمات مبعثرة وسخرية حولي.. أعدو كالجرذان.

(3)

المدينة غول كبير.. وحش يلتهم الغريب.. تتشابك هنا خيوط العنكبوت.. في كل مكان فخ وفريسة تسقط.. أجوب الشوارع هربًا من شيطان الحجرة القابع على سريري.. أتسكع بين الطرقات.. أسيح بعينيَّ بين معروضات المحلات من ملابس وأحذية.. ترهقني أسعارها الباهظة.. تجذبني محلات المأكولات.. تصدمني أسعارها.. (ساخرًا) أنا لا أملك سوى متعة المشاهدة فإن «العين بصيرة والإيد قصيرة»..

- «كل يا اخويا ورُم عضمك.. أمك متوصية بيك»..

أتذكر كلمات أخي «حسنين» عندما يأتي لزيارتي محملاً بما لذَّ وطاب من رائحة أمي الغالية من البط والفطير والجبن القديم والخبز الساخن.. هذا يوم عيد معدتي التي ترقد طوال الشهر في أحضان صحن الفول والطعمية أو ربما لقيمة بالشاي دون حليب أحيانًا كثيرة.

تتوه صور الإنسان وسط الكتل البشرية والأسمنتية.. وسط الشوارع الغارقة في مياه الصرف الصحي (المجاري) التي امتزجت بمياه الشرب فأصبحت بلا طعم أو لون سوى من رائحة كريهة تغتصب الأنف.

- «الشارع مقفول.. ممنوع المرور من هنا»..

يدفعني الشرطي الواقف وسط مجموعة من الجنود المدججين بالسلاح

وعربات الأمن المركزي تحاصر الميدان.. أرى على البُعد «سليمان» ابن «أم الخير» يرتدي حلة سوداء وخوذة.. لا يعيرني اهتمامًا.. أناديه لا يجيبني وكأنه تمثال من حجر.. أتراجع.. أتساءل.. أبتلع سؤالي ورعبًا أراه في الوجوه.

- «امشي جنب الحيط.. يحتار عدوك فيك»..

صدقت يا أبي.. أترك الشارع كله وأدخل شارعًا جانبيًا مع بعض المارة المرتعدين من صورة الحلل السوداء والسيارات وجنازير الحصار.. هنا وهناك لافتات.. الدعم.. تطالب بالخبز.. بالحرية.. بالديمقراطية.. يسقط.. ويسقط... أكاد أسقط في إحدى حفر الصرف الصحي في ظلمة أحد الشوارع لولا أن أمسكَ بذراعي أحد المارة:

- «حاسب يا ابني.. هي العملية ناقصة؟ كفاية اللي احنا فيه»..

أحمد الله على نجاتي.. أسرع.. أهرول.. أرغب أن أترك هذا المكان.. لا بد أن أعود إلى حجرتي.. التعب ينهش جسدي.. لا بد أن أستعد للسفر غدًا إلى قريتي.

اليوم تتزوج «فردوس» - بنت عمي «سليم» - من «جمال» - ابن الحاج درويش - الذي لم يكمل دراسته بالإعدادية.. أضحك كثيرًا حين أتذكر لعبتنا «عريس وعروسة» التي كانت تجمعني أنا و«فردوس» و«جمال» و«إفراج».. كانت دائمًا «إفراج» من نصيبي و«فردوس» من نصيب «جمال».. سافرت «إفراج» - كما قالت أمي - وتزوجت ابن خالتها المدرس في إحدى الدول العربية..

اليوم «فردوس» تتزوج أيضا ومن «جمال».. الكل يتزوج وأنا ما زلت قابعًا تحت شجرة التوت التي شهدت لعبتنا «عريس وعروسة» التي صارت اليوم حقيقة بين «فردوس» و«جمال».

تصعد سُلَّمَ ذاكرتي رغباتٌ تأتي من ذكريات بذور كنت أزرعها تحت الشجرة.. تجلدني سياط الذكرى والرغبة.. أحلام راقدة فوق بركان.. جسد امرأة.. رغبة محمومة.. قريبة أمي «أم كمال».. همسات وضحكات أبي وأمي في ظلام الليل.. أحاديث تُروى عن هجر الفراش.. حياء المرأة.. الحب.. العشق.. الزواج.. غناء النسوة ليلة زفاف «فردوس» وهن يحملن بين أيديهن رايات بيضاء تتناثر عليها بقع حمراء معلنة عن نحر الذبيحة:

- «تستاهلي ياللي رجالك دولا..
تستاهلي الطباخ في بيت أبوك..
يغرق ويملا لدولا ودولا»..
تحاصرني أسوار الشرف.. العرض.. الحلال والحرام.. الست «جمالات».. عالم مجهول وبراءة في مهدها نحبو.. نتحسس طريقها.. الكل يتزوج وأنا وحدي.. قابعًا في حجرتي..
- البركة في أهلهم.
لا أملك سوى الأحلام.. حتى الأحلام تتلاشى أمام وجه أبي الذي يتصبب عرقًا وهو يضرب الأرض بفأسه أجيرًا في أرض شيخ البلد.. أواسيه بكلماتي عندما ترسلني أمي إليه حاملاً الغداء:
- «كفاية كده يابا.. أنا جبت الغدا».
يتوقف.. تتوحد الفأس وجسده النحيل.. يمسح عرقه بطرف قميصه وهو يرمق قرص الشمس المحرقة.. بابتسامة باهتة:
- «طيب يا سمير.. روح أنت يا ابني ذاكر وما تضيَّعش وقتك»..
أتركه.. أحتضن شجرتي الحبيبة.. أدور حولها.. يضع أبي الفأس جانبًا.. يغمس لقمة جافة في صحن «المش».. يرمقني مستعطفًا:
- «روَّح يا ابني.. ربنا يحرسك.. مكانك مش هنا.. أنا عايزك حاجة كبيرة يا سمير.. تاخد الشهادة وتريحني أنا وأمك».

(4)

تشدني أحاديث النسوة وحكاياتهن عن العريس والعروس وليلة الزفاف وأنا جالس بجوار أمي.. مجهول يزاحم أفكاري.. سيقان تتراقص علانية على دقات كعاب أحذية العصر.. تتعانق الأيدي في الطرقات.. تأخذني أفكار ورغبات مكبوتة.. لا أنكر أني أرغب في التجريب.. في البحث عن عالم مجهول محاولاً فك رموز الحلم.. أختلس النظرات.. ترتعش ساقاي.. يجف حلقي وأنا أراها نائمة على سريري تكشف عن ساقين عاريتين.. أتراجع.. تلملم أطرافها.. تسكرني بنظرات ظمأى.. أعتذر.. تعتذر في دلال.. تأبى عيناي النوم.. يسقط

جسدي المرهق. اليوم أراهـا.. الست «جمـالات».. جسد أسـود مترهل تطفح بشرتها ببثور.. أنف مفلطح.. عينان تتوحشان في شبق وشراسة.. امرأة تصرخ جوعى.. الحجرة صارت عيونًا مفترسة والمرأة تطاردني.. تروي عن وحدتها مع زوج غائب في عمله.. منهك في بيته.. أصمت.. تسألني: هل أحببت؟ أهرب.. تتراقص في شبق.. في نشوة أمام نافذتي ذهابًا وإيابًا.

لا أنكر أن شيئًا ما راح يتقلب في أعماقي.. أمواج هائجة.. بركان.. رغبة تشغل كل جوارحي.. أعجز أن أبقى بين زملائي.. عيني تفضحني.. تكشف سرًا.. أحمل كتبي ومراجعي.. أسيح بلا هدف وسط الحواري والطرقات.. في ضوء خافت من مصباح تتمدد قدماي متعبتين.. ساكنتين بلا حراك.. ضحكاته تجلدني.. أهرب للنوم.. لا يصمت عقلي.. الصوت يشبحني..

- «انت جيت يا أستاذ؟ مش عايز حاجة؟»..

تفزعني كلماتها.. تطلب مني أن أفتح باب الحجرة.. أرفض.. أتذرع أني متعب متهالك.. في لوعة ودلال تلحّ.. تدخل متشحة بثياب سوداء.. تجلس بجواري.. أبتعد.. تطاردني.. تحاصرني.. تأخذني في نَهَم.. أتراجع.. أتفزز.. أتخلص منها ممتعضًا:

- «أرجوكِ.. أرجوكِ.. اخرجي».

تأبى أن تتركني.. ترجوني.. تتبعني.. تسقط ملاءتها السوداء.. تذهلني.. تزلزلني الصورة.. تتراقص.. يتراقص الآخر حولي.. غلالتان صغيرتان.. أنتفض.. أتلعثم.. سوط يجلدني.. بركان ينفجر.. غليان يجتاح الجسد.. تجذبني محمومة.. تسقط أوراق التوت الأخضر.. ألسنة اللهب تأكلني.. يبتلع الحجرة ظلام حالك هالك.. تتأوّه.. كلمات مبعثرة.. أغوص في بئر عميقة.. أهرب من عينيها.. من شفتيها أتأفف.. تتأفف.. تملكني رجفة.. رغبة في البكاء.. تتأفف.. تلفظني وأنا ما زلت غارقًا في محاولة فاشلة.. تدفعني ساخرة من خيبة أمل.. أسقط.. أتدحرج.. أتكوَّم في بطن الحجرة.. الحجرة مستنقع آسن.. بقايا رماد محترق يتناثر.. يلون الجدران.

(5)

كابوس الليلة مفزع.. لا أقوى أن أجمع أطرافي الهشة.. قلبي يسقط.. عقلي

يسقط.. شيء ما يلتف حول عنقي.. تخنقني.. فخاخ.. عنكبوت.. ملاءة سوداء هي فخ العمر.. مصيدة الغريب.. عار يلطخ المكان.. كتبي ومراجعي تغوص في أوحال الحجرة.. أتسلل في خوف.. خطوات لص محترف في بقايا الليل.. يلفظني باب الحجرة.. يبصق خلفي.. أحترق.. تنتحر بقايا أحلام بيضاء.. أتفتت بقعًا سوداء.. تتضافر ثوب.. ألملم به خطيئتي.. ثوبي ملاءة سوداء.. أغوص في مدينة غارقة في برك راقدة.. يرقبني على بابها وحش راقد في تحفز.. نظرة تمسخني قردًا يتمطّى.. يتراقص في هلع.. يترنح.. يتدحرج.. يغرق والغرقى هنا هم الغرباء.. وصدقت جدتي:

- «الغريب أعمى ولو كان بصير»..

أصرخ شوقًا وحنينًا إلى أرضي.. إلى شجرة التوت معشوقتي.. تسلبني عاصفة بكاء.. يشق سمائي وحش غادر.. أسقط كومة سوداء تحت جذع للشجرة.. تتساقط فوقي حبات التوت.. جافة.. صلبة كحصى ترجمني.. تنهال فروعها في قلبي.. في جسدي.. تشطرني.. تلفظني شجرة التوت.. أسقط.. أتلوَّى دودًا.. تسحقني أقدام الثور الهائج وهو يدور بالساقية دورته من جديد.. دورة لا تنتهي إلا آخر النهار..

(تمت)

كشك الأحلام

علـــى الأرض سـقـط الجسـد.. راح الــوجــه المتألق يتصفح شـريـط حـيـاتـه عـلـى صفحات الـجـرائـد الـتـي تحـاصـره..

ابتسامة راحت تزين وجهها على الرغم من خطوط الزمن التي تعرجت فيه، الذي لا يخلو من لمحة جمال ورقة.. تجلجل في أعماقها ضحكات وفرحة غامرة.

إنها لم تصدق حتى الآن أن الدنيا ضحكت لها أخيرًا.

- «بجد يا سيد.. أحلامنا خلاص هنحققها بعد العمر ده؟ أنا مش مصدقة».

- «لا يا كريمة.. صدقيني.. خلاص الحلم بقى حقيقة.. بكرة أنا هستلم الكشك على سنجة عشرة.. وترتاحي من شيل الجرايد رايحة جاية ونعلم الوله نور ونموت واحنا سايبين حاجة للوله شحتة واخواته».

- «يديك العمر الطويل ياخويا».

لم تصدق «كريمة» أنه بعد كل السنين التي قاستها كفاحًا هي وزوجها «سيد» العاجز أن يتحقق حلمهما في الحصول على «كشك صحافة».. ما زالت آثار الجري على الأرصفة وبين الميادين على أقدامها وهي تبيع الصحف.. يتربص بها الموت في كل مكان وخلفها السيارات الهائجة.. أما «سيد» زوجها فمنذ أن فقد ساقه اليمنى لم يبقَ له سوى الرصيف.. يظل جالسًا عليه طوال النهار أمامه بضع علب

وصناديق الحلوى ومناديل وغيرها.

تركت ساقُ «سيد» التي فقدها في أثناء عبوره الطريق أثرًا كبيرًا في حياة «كريمة».. يومها اسودَّت الدنيا.. حاصرها الحزن.. أخفت دموعها حتى لا يراها.. عجزا أن يعلِّما «جمالات» و«شحتة» في المدارس أمام مصروفات الدراسة..

- «نفسي أروح المدرسة يابا.. والنبي يامّا».

حين قالها «نور» - آخر العنقود - دمعت عيناها يومها وأصرت على أن تلحقه بالمدرسة الابتدائية.. وكان القدر رحيمًا.. حين تزوجت «جمالات» من ابن عمها - ميكانيكي سيارات - أحب البنت وأصر على سترها (من الإبرة إلى الصاروخ)؛ فهو كان يعلم حال عمه المسكين وأسرته.. أما «شحتة» فكان يساعد والده وأحيانًا يعود بـ«المرتجع» من الصحف مع أمه أو وحده.. أو يحضر البضاعة البسيطة التي كان يبيعها والده «سيد» على فرشته على الرصيف طوال النهار.

- «الدنيا اتغيرت.. النهارده شايفاها بعين تانية.. أحلام ولادنا يا سيد.. فاكر.. فاكر زمان.. هيرجع تاني.. وسيد صاحب (كشك الأحلام) يشتري منه كل الناس».

- «يا وليَّة.. سيد كان زمان.. كنت فرس بيرمح هنا وهناك فوق الأرصفة.. وانتي (مبتسمًا) كنتي القمراية اللي بحلم بيها.. لكن (منكسرًا) بعد...».

تقاطعه بإصبع يدها على شفتيه في رقة:

- «لا.. اوعى تكمّل يا سيد.. أنت عمرك ما اتغيرت بالنسبة لي.. سيد هو سيد الغالي وتاج راسي بتاع زمان (تمسح دمعة حزينة لمعت على وجنته) وحياتي عندك يا سيد.. إحنا النهارده اتحقق حلم عمرنا.. لو كنت بتحبني صحيح اوعى.. (تضحك وهي تخفي دموعها عنه) ده احنا خلاص.. خلاص يا سيد».

أمسكت «كريمة» بيد الولد «نور» وراحت تحمل الصحف والمجلات في اتجاه شارع الصحافة.. اليوم هو الأخير.. سوف تحضرها بعد ذلك السيارة حتى الكشك وتعود أيضًا بالمرتجع.. من الغد.. سوف يجلس «سيد» على عرش

«كشك الأحلام» وحوله بضاعته وابنه «شحتة».. أما «كريمة» فسوف تجلس «ست البيت» تنتظر «السبع» سيد البيت.. سيد حياتها كلها.. اليوم وُلدت «كريمة» من جديد.. تتولد داخلها رغبة في الضحك.. الرقص.. الغناء..

- «أنا فرحان قوي يامّا.. أبويا هيجيبلي هدوم جديدة وكتيرة وشنطة المدرسة».

- «طبعًا يا نور.. الدنيا زهزهت لينا يا وله.. بس أنا عايزاك يا نور أهم حاجة تذاكر وتنجح.. أنا عايزاك ظابط.. بس (تنظر إلى ظابط المرور) بس مش ظابط مرور زي ده.. بسبب العربيات رايحة جاية تموِّت ده وتعوَّره..».

- «إيه يامَّا.. انتي هتعيطي يامّا؟».

- «لا يا نور.. أنا.. أنا (تمسح دمعتها وتغتصب ابتسامة) بص أنا عايزاك دكتور يا نور تعالج كل الناس».

- «ماشي يامّا.. أبقى دكتور.. افرحي بقى.. هاتي الجرايد عنك».

- «دي تقيلة عليك يا نور عيني.. عدي أنت بس يا نور.. وخد بالك العربيات مجنونة».

- «يامّا ما تخافيش.. وبعدين المجلات دي مش تقيلة.. هاتي.. عدي يامّا.. عدي يا نور هات إيدك».

فرملة مفاجئة.. اصطدام عنيف.. صرخة تشق الأرجاء:

- «نور.. نو...».

- «أمي.. أمي.. أمي».

قام شخصان بجمع الصحف المتناثرة الملطخة بالدماء.. على الأرض سقط الجسد.. راح الوجه المتألم يتصفح شريط حياته على صفحات الجرائد التي تحاصره.. هناك «كريمة» بجلبابها الوردي والمنديل «أبو أوية» ومن تحته ضفيرتان طويلتان.. تركض على الجسد وهي تنادي:

- «أخبار.. أهرام.. جمهورية».

وعلى الرصيف المقابل يقفز «سيد» كالعصفور وهو يغني:

- «المسا.. المسا يا أم عيون ناعسة».

صوت «نور»:

- «آمي.. أمي.. أمي».

وعلى صفحة أخرى كان الزمر والطبل وزغاريد «أم حسن» والست «زينات» يزفون «سيد» و«كريمة» وسط الأحباب.. ويقف «سيد» فارسًا في عز شبابه حاملاً العصا يرقص رقصة «التحطيب».. ويقهر «علي» السمَّاك..

صوت «نور»:

- «أمي.. أمي.. أمي».

وعلى صفحة أخرى فرحة «كريمة» بابنها البكر «شحتة» وسعادة الدنيا بمجيء «جمالات» وآخر العنقود «نور».. وفرح «جمالات» على «عبد الشافي» ابن عمها الشهم..

صوت «نور»:

- «يامًّا.. أمي.. أمي».

وصفحة أخرى حين شقت «كريمة» ملابسها وصرخت وزملاء «سيد» في العمل يحملونه دون ساقه اليمنى والدماء تغطي وجهه.. صفحات حزن وأحلام وسعادة راحت تتقلب أمام عينها الدامعة.. الدامية.. يشق «نور» جموع الناس.. يجري.. يرتمي في حضن أمه الوحيد بين صفحات الجرائد على الأسفلت.

- «ردي عليَّ يامّا.. ردي عليَّ».

يصل رجال الإسعاف لحملها وسط حصار الجثة المغطاة بالصحف اليومية والأسبوعية والمجلات..

أحدهم يرفع يديها:

- «لا إله إلا الله.. الست ماتت».

(تمت)

اختيار

تتحرك عجلة الذكريات.. تتذكر أنها أحببت في الماضي.. حبًا لم تجنِ منه سوى طعنة خداع في القلب لم تندمل..

يومًا بعد يوم تتضاعف حيرتها في وصف ما تعانيه.. لم تكن قادرة على أن تعترف لنفسها بأنها أحبت بصدق، ولم تكن كذلك قادرة على أن تقنع نفسها بأنها لم تحب، وفيما بين طرفي هذه القضية الحائرة لم تستطِع أن تصل إلى وصف حقيقي لهذه العلاقة أو الإحساس الذي يشدها ويسلب عقلها أحيانًا.

هل هو الانجذاب، أم الإعجاب، أم الائتناس، أم هو درجة من درجات الطمأنينة فحسب؟!

أحيانًا كانت تسعى إلى أن تفكر في وضع لفظ أو معنى جديد تعبر به عن هذه المشاعر التي راحت تجتاحها اجتياحًا.. وأحيانًا أخرى كانت تستسلم لواقعها الذي تعيشه.. لكن هناك من كان يداعب، بل يقتحم، خيالها.. ينقلها إلى واقع آخر يخالف ما تعيشه.. وتتنازعها الأفكار عمَّا أصاب قلبها من عدم انتظام دقاته أو سرعته المفاجئة.. وكأن قلبها يسرع كالقطار أو يجهد نفسه بين أن يفتح أبوابه أو يغلقها.. يصحو من غفلته أم يستسلم لما هو فيه؟!

تتحرك عجلة الذكريات.. تتذكر حين أحبت في الماضي.. حبًا لم تجنِ منه سوى طعنة خداع في القلب لم تندمل.. حين تزوجت من رجل لم تحبه.. مارست سيطرتها عليه.. انتقامًا أسرع

من حبيب غدر بها.. مارس عليها سطوته.. أسرها فوقعت في غرامه ثم فاجأها بزواجه من صديقتها اللدود.

اليوم أحبها رجل - من حسن حظها - يفوتها سنًا وخبرة.. قادر على التسامح.. ناصح لها.. مبحر بين خلجاتها وكأنه يعرفها منذ طفولتها.. هربت من حبه.. تمردت على الحياة مع زوج مسكين.. أنهت حياتها معه دون ندم.. دمَّرت حبها البكر الذي لمس قلبها.. وحسنًا أنها عجزت عن إيجاد تفسير داخلها له أتعبت قلبها المسكين وفات القطار.

لم يبقَ أمامها سوى البحث عن «خزينة مال» فكان الرجل العجوز الثري هو النهاية.. بل الغاية.. ودون أن تعرفه جيدًا تزوجته.. فراح يعاملها على نحو ما يعامل الديكتاتور رعيته.. فلم يعد لها حق التنفس.. الفرصة في أن تختار ما بين الأبيض والأسود والأحمر في ألوان ملابسها.. هو وحده الذي يختار مستبدًا.. وراحت هي سعيدة.. مستكينة بهذا الطراز النادر الذي يذلها نهارًا ويكون عبدها ليلاً.. تعانق المريضان على فراش من الحرير.. بينما راح الرجل الذي أحبها بصدق يتأمل حالها ونهاية حياتها.

(تمت)

قارب بلا شراع

ذابت مجاديفه وسط أمواج تلاطمت عنيدة.. عجز عن صد ضربات صخور أكثر عنادًا.. صرخ بلا صوت.. راح شيء ما يلعقه وسط الأمواج.. يغوص به إلى القاع.

رجال الأمن يفتحون باب المستشفى الكبير أمام سيارة الإسعاف التي راحت تشق الزحام والهرج والضجيج والصراخ على أثر حادث كبير وقع على الطريق الدائري.

راحت صافرات الإنذار تصرخ في أنحاء المستشفى.. يتدافع الأطباء خلفهم «التمورجية» والممرضات.. يدفع أحدهم الترولي حاملاً أحد المصابين الذي تغطي وجهَه الدماءُ بينما يعلن النداء الداخلي:

- دكتورة نهلة خاطر.. دكتور محمود شفيق.. يحضران فورًا إلى عنبر الطوارئ.

يسرع أحد الأطباء وخلفه الحكيمة في حالة هلع وهو يصيح:

- حالة خطيرة.. غرفة العمليات بسرعة.

إحدى الحكيمات:

- حالتان خطيرتان: نزيف في المخ والجسد مكسر.

تهرع د. نهلة على أثر النداء الصوتي إلى غرفة العلميات ومعها د. حاتم.. في انتظارهما على باب الغرفة د. محمود شفيق.. الأطباء يفحصون أحد المصابين بنزيف في المخ.. امتدت يد د. نهلة إلى وجه المصاب وما كادت تمسح وجهه من الدماء حتى تغيرت ملامح وجهها باهتة..

متوترة.. ذاهلة تتراجع وهي تشعر بدوار:

- مش ممكن.. مستحيل.. «رمزي»!!

أحس زملاؤها الأطباء بتوترها.. هم يدركون حساسية د. نهلة.. فقد توفي والدها في حادث سيارة..

يحاول د. محمود إبعاد د. نهلة ناصحًا لها:

- أفضل أن تستريحي.. أنت مرهقة اليوم.

في إصرار:

- لا يا دكتور.. أنا موجودة.. فقط بعض الصداع.

تستعيد توازنها وتمسك بأحد المشارط.. بينما راحت الذكريات تتراجع أمام عينيها ويمر الوقت عصيبًا وسط الأطباء لإنقاذ «رمزي» الذي اختلت به عجلة القيادة فوقع الحادث حين اصطدم بسيارة نقل.. ساعات تمر.. ويخرج الجميع وخلفهم د. نهلة خاطر في حالة إعياء.

د. محمود ينادي إحدى الحكيمات:

- أحضري بسرعة قرصًا مهدئًا للدكتورة.

تتماسك «نهلة» وتدخل حجرتها.. وتنتابها حالة بكاء شديد:

- بعد كل هذه السنين لا ألقاك يا «رمزي» إلا في هذا المكان وفي هذه الحالة.

تتراءى الذكريات أمام عينيها حين أحبت «رمزي» بكل حواسها.. شاب يحبه الجميع ويتنبأون له بمستقبل عظيم.. فقد كان «رمزي» جارًا لها في حارة «العربي».. كانت تراقبه عبر شرفة حجرتها.. راقت لها وسامته.. رقة أحاسيسه وأشعاره.. دأبت على متابعة الندوات الشعرية الذي يشارك فيها. وفي إحدى الندوات وقفت «نهلة» تعلق على بعض أشعاره في إعجاب والتقته بعد الندوة وتعددت اللقاءات والندوات التي جمعت بينهما حتى دعاها «رمزي» لمشاركته رحلة إلى مدينة الإسماعيلية لحضور مهرجان ثقافي كبير، وعلى الرغم من دراستها بكلية الطب فإنها قبلت دعوته بعد أن أحبته بصدق.. الراحة بين يديه والحديث معه.. وحين التقت إحدى الأديبات المشاركات في المهرجان الثقافي طلبت نصيحتها فقالت لها:

- تقيسين حبك له.. عندما تشعرين بالحاجة إليه ليشاركك فرحة أو تفقدين وجوده وأنت تواجهين أزمة، ذلك هو الرجل الذي تشعرين باليتم دونه.

وهنا أدركت «نهلة» أن حياتها من دون «رمزي» هي المستحيل.. راحت تسأله عن الحب.. كانت تصغي لحديثه حين يتكلم بالعينين قبل الأذنين.. أحبته بجنون..

- مصاب الحادث الموجود بالعناية المركزة.. تحسنت حالته قليلاً.. لا بد من نقله إلى حجرة أخرى.

تنبهت «نهلة» من استغراقها على كلمات د . محمود وهو يطرق باب حجرتها فأسرعت تمسح دموعها.

- تفضل يا د. محمود.

وهي تعتبر د. محمود أخًا مخلصًا لها.. ينظر إليها يلاحظ بريق عينيها الحزينتين.. يبادرها:

- ماذا بك يا «نهلة»؟ أراكِ على غير حالك.. ما حدث في غرفة العمليات لم يك طبيعيًا.. هل تعرفين هذا المصاب من قبل؟

ودون تردد لم تستطِع أن تخفي عنه الأمر:

- إنه.. إنه الشاعر رمزي الخولي.. كان جاري في الحارة نفسها التي كنت قد عشت فيها سنين من عمري.

هز د. محمود رأسه:

- هذا ما توقعته.. اطمئني، سوف يكون بخير.. لكن أليس غريبا أنه على الرغم من مرور أسبوعين على وجوده بالمستشفى لم يسأل أحد عنه من أسرته؟!

في بأس:

- أمر غريب بالفعل.. وأنا أحاول الاتصال بأسرته؛ فأنا لا أعلم عنه شيئًا منذ عشر سنوات بعد سفري إلى الخارج..

يخرج د. محمود تاركًا د. نهلة ساهمة ببصرها عبر النافذة.. يصدر أوامره بنقل المصاب إلى حجرة رقم «60»، تلحق به د. نهلة لتتابع المريض.. تجلس بجوار «رمزي» بعد أن ترفض جلوس إحدى المرضات بحجرته.. راحت تتأمل

وجهه.. سنوات طويلة فرَّقت بينهما واستيقظت الذكريات؛ حيث كانت معه في إحدى الحدائق.

- صدقيني يا نهلة.. لو أحببت يومًا لن أحب غيرك.. من المستحيل أن أجد امرأة مثلك.. لكن.. لكن الظروف قاسية.. الأسرة بعد رحيل والدي حمل ثقيل.. الأمر برمته مستحيل..

تقاطعه:

- ليس هناك مستحيل، أي ظروف لا تريد أن أعرفها؟

بعيدًا راح ينظر في قلق:

- لقد مات والدي وأصبحت أنا المسئول عن أمي وإخوتي هل تتصورين رجلاً مثلي له الحق في الحب؟!

بإصرار:

- وأنا على استعداد لأن أنتظرك طوال العمر!!

مقاطعًا:

- إلى متى يا «نهلة»؟ إلى أن يكتسح الشعر الأبيض رأسك.. كفى أوهامًا.. لا أريد أن أعتقلك بجواري دون أمل.. أنت أمامك المستقبل يناديكِ.. طبيبة ناجحة وسوف تجدين طبيبًا مثلك.. أما أنا (يائسًا) فما زلت أبحث عن عمل على الرغم من انتهاء دراستي بكلية التجارة.. ما زلت غارقًا في إبداعاتي التي لا أدري إلى أين طريقها.. أنا سجين وأسير ماضٍ بأحماله.

يتركها وحدها.. يهرب إلى بلاد الغربة من أجل مسئوليات كبيرة يهمل الإبداع المتيَّم به.. ينقل أسرته إلى مكان آخر بينما تعجز «نهلة» عن الاستمرار في رفض طالبي الزواج وتتزوج الطبيبة المتميزة من المهندس «أشرف» رجل الأعمال في عالم الكمبيوتر دون حب وعلى الرغم منها.

دفنت «نهلة» الماضي والحب القديم بين مرضاها وطفلها الوحيد «رمزي» بعد استحالة حياتها مع «أشرف» الذي كان رجلاً عصبي المزاج.. قاسي الطباع، خاصة بعد أن حاول إجبارها على ترك عملها والسفر وأن تتفرغ لطفلها.. رفضت كل شروطه في تحدٍّ.. فكان الطلاق.

راح صوت «رمزي» ينزعها من استغراقها.. تمسك بيديه.. تقبِّلهما.. كانت آلامه أكثر من احتماله.. راح يصرخ في هياج.. أسرعت د. نهلة تهدئ من روعه ولم يكن بديلاً أمامها سوى أن تحقنه بحقنة مهدئ ليستريح منه آلامه.

وعلى الرغم من محاولات د. حاتم أن يثنيها عن بقائها، رفضت.. وأمام دهشته لاهتمامها الشديد بهذا المصاب أخبرته أنه أحد أقاربها.. فخرج بعد أن تركها وحيدة لتسبح من جديد في بحر الذكريات.

كانت «نهلة» لا تتوانى عن متابعة الكتب الأدبية، خاصة الشعرية.. حتى فوجئت بديوان شعري بعنوان «قلب بلا شراع» للشاعر رمزي الخولي.. قرأته.. رقص قلبها لإبداع حبيبها.. راحت تتابع أخباره.. فقد كان دائم السفر لظروف سياسية أبعدته عن أرض الوطن سنين من عمره.. لم تجد ملاذاً يؤنسها سوى دواوين شعره وصوره بالصحف والمجلات.. أبحرت بين أبيات شعره وكأنه كان يكتب لها أو عنها.

تمر ساعات الليل ثقيلة وهي في حجرته.. لحظات وانسحبت في هدوء في ظلام الليل إلى حجرتها بعد أن أوصت إحدى الحكيمات برعاية مصاب حجرة رقم «60» حتى لا تسيء إلى سمعتها كطبيبة في الجلوس بجوار «رمزي».. فلا أحد يعلم بحبها مع هذا الرجل الذي ملك كل حواسها.. مرت أيام قاسية.. حتى فوجئت «نهلة» بإحدى الحكيمات تدق باب حجرتها تبلغها بأن مصاب حجرة «60» يطلب المسئولين بالمستشفى.. أسرعت «نهلة» إليه فوجدت د. محمود شفيق ود. حاتم بالحجرة يطمئنان على «رمزي».. والتقت عيناها عيني «رمزي» الذي أصابته دهشة.. لكن ساقه اليسرى كان لا يشعر بها لوجود جبيرة وظن أنه أصيب بشلل.. فصرخ منهارًا.. هائجًا.. أسرع د. حاتم بإعطائه حقنة مهدئة.. وخرج الجميع وخلفهم نهلة تخفي دموعها.

في الصباح، قررت د. نهلة بدء العلاج الطبيعي بعد أن أزالت الجبيرة عن ساقه اليسرى وتعددت اللقاءات بينهما.. وراحت تسأله عن حياته وعمله.. وسط حديقة المستشفى حين كان يتنزه على كرسيه المتحرك.. استسلم ليديها بعد محاولاته الكثيرة للهروب منها.. لاحقته.. ذكَّرته بحبها وأنها لن تتخلى عنه أو

تتركه كما حدث في الماضي.
كان «رمزي» قد خرج يوم الحادث غاضبا بعد أن تركت زوجته المنزل إلى بيت أهلها مع ولديها الصغيرين: «وائل» و«نهلة»، على أثر مشاجرة بسبب إهمالها لشئونه.. حتى عندما وقع الحادث رفضت طلب إدارة المستشفى بزيارته والحضور بالولدين لرؤية والدهما.. هذا ما علمته «نهلة» من الدكتور محمود، وكان لا بد أن تدافع عن «رمزي» بأن زواجه كان لظروف عائلية دون أن يجمعهما الحب وخلافات بين الأهل وراء فجوة عميقة راحت تزداد.. هكذا ساقت إليه الكلمات مدعية علمها بذلك من «رمزي» نفسه بالمخالفة للواقع..
واجهته بما عرفته.. عاهدته على حبها له الذي لم يسكن يومًا.. فاجأها:
- لا بد أن أخرج فورا من هذا المكان.
في حنان:
- لم تبقَ إلا أيام قليلة وتصبح بخير وأنهي لك إجراءات الخروج.. لكني...
مقاطعا:
- «نهلة».. أنا لم يعد قلبي ينبض سوى بالشعر.
في توسل:
- وأنا لن أتركك.. لقد قرأت ديوانك «قلب بلا شراع».. أنت ما زلت تحبني.. أرجوك.
ينتهز «رمزي» سفر «نهلة» لمؤتمر طبي بالخارج وقد استرد صحته فيسرع بالخروج من المستشفى دون أن يترك لها عنوانًا أو تليفونًا.
- مرة أخرى تهرب أو تضيع مني يا «رمزي».
هكذا صدمها خبر خروجه من المستشفى واختفائه، خاصة حين أغلقت زوجته الهاتف في وجهها عندما سألت عنه باسم المستشفى.
رحل «رمزي» وقد ترك بهروبه منها جرحًا داخلها وربما جرحًا داخله أيضًا.. هرب عشق الرقاد وسط جروح الماضي وأحزانه.
مر عامان ولم تيأس «نهلة» في البحث أو الاتصال بـ«رمزي»، وعلمت أنه أقام بعد ذلك بمدينة أخرى وراحت تتجرع آلامها.. يداعب أناملها طفلها الصغير

«رمزي» الذي أطلقت عليه اسم حبيبها الشاعر الهارب.. راحت تحدثه.. تعاتبه وهو لا يفهم أنها كأنها تحدث شاعرها الجريح ولم تتوانَ «نهلة» عن متابعة الندوات الشعرية والحضور فيها والسؤال عن «رمزي» حتى فاجأها ليلة في أحلامها.. رأته بصحبة امرأة.. عابس الوجه ليس سعيدًا.. أفزعها الكابوس.

وذات يوم دق الهاتف.. تبلغها إحدى صديقاتها من هواة الشعر بحصولها على رقم هاتفه المحمول.. وأملت عليها رقمه.. كان بالفعل قد وقع «رمزي» في شباك إحدى النساء فراحت تطارده بحبها له وبالفعل أحبها بصدق.. ربما أدمنها لينسى امرأته التي تخلت عنه.. ليعذب نفسه لأنه لم يتزوج «نهلة» التي أحبها فكانت الظروف حائلاً أمام الحب الذي شكل إبداعه الشعري.. لكنه أحس بمولده من جديد.. بل وتيقن أن المرأة تحبه بالفعل، لكنها قذفت بقلبها إلى الثري.. كابرت وعذبت قلبه الجريح.. خافت أن يضع حبه قيودًا على حريتها في أن ترى إعجاب الكثيرين برقتها وبكتاباتها القصصية.. كتمت حبها فجأة وكأنها تتحكم في قلبها بأزرار إلكترونية أو كهربائية.

فاجأت «نهلة» هاتف رمزي المحمول بصوتها الحنون:

- أنا «نهلة».. أرجوك أريد أن أراك يا «رمزي».

حاول الهروب كعادته:

- من أنت؟ الرقم خطأ سيدتي.

باكية:

- أرجوك يا «رمزي».. هذه المرة قد تدفعني للانتحار.. فقد استحالت حياتي بعد أن وجدتك بعد هذه السنين.. أنا لم أعد أهتم بعملي.. أموت في اليوم مرات ومرات.. أريد أن أراك.

غاضبًا:

- أرجوكِ.. ابتعدي عني.. ابحثي عن النجاة أنتِ وولدك.. (دق عنقه بكاؤها.. مستدركًا) أرجوك يا «نهلة».. كفى بكاء.. كفى.. أراك غدًا.

وهي تمسح دموعها:

- ألقاك إذًا.. في المكان نفسه.. أرجو ألا تكون قد نسيته بعد هذه السنين.

أغلق الهاتف.. أشعل سيجارة وراح يدخن في نهم.. تنازعته الأفكار.. هو لم يعد في توازنه الطبيعي.. صراع يشق قلبه.. أحب امرأة وخذلته والماضي اليوم يعيد له محبوبته وهو يحاول الهروب مرة وراء الأخرى.. تاه قاربه بين الشطآن.. قارب بلا شراع.. يشق النهر بمجدافين هزيلين أمام أمواج عاتية راحت تحاصره من كل جانب.. ذابت مجاديفه وسط أمواج عنيدة تلاطمت.. عجز عن صد ضربات صخور أكثر عنادا.. صرخ بلا صوت.. راح شيء ما يلعقه وسط الأمواج.. يغوص به إلى القاع.. راح يتشبث بقلمه محاولاً النجاة.. راح يطفو فوق سطح الماء بل يسبح مع النجوم.. يفقد توازنه.. يهوي في الأعماق.. يحاول التنفس.. على البعد راح ضوء يشق الظلمة التي تحاصره.. قمر مشبوح.. مشنوقًا يتدلى بين الأمواج يستغيث به.. يحتضنه في شوق.

تحتضنه من الخلف.. فاجأته «نهلة» وهو ساهم ببصره إلى أمواج النهر.. هارب من الحب إلى الحب..

تمسح دموعها:

- لماذا الهروب مرة أخرى يا «رمزي»؟ لقد اسودت الدنيا في عينيَّ.. لم يبقَ نور في حياتي غيرك.

يواجهها.. في شوق انهيار:

- ربما أكون «رمزي» الذي أحبه قلبك.. سنوات طويلة.. القلب أنهكته السنوات وسط الخداع والخيانة وجراح لم تندمل.. إنني متعب يا «نهلة».

(راحت تدس رأسه في صدرها) تمسح دموعه وهو يبكي في أحضانها.. طفلاً.. راح يختبئ في صدرها.. حنانها وحمامة بيضاء راحت ترفرف سعيدة حولهما.

(تمت)

فنجــان قهــوة

ضـرب الليل بظلمته نور النهار وعادت الطيور هاربة إلى أعشاشها .. سحابات سوداء تتراكم .. تفرد جناحيها شرقاً وغرباً ..

وكعادته أتي سجان الليل يفتح داخلها زنزانة السنين المظلمة .. يجلدها وحشة وقلقا .. وحيدة يمتلك الرعب كل حواسها .. تتراجع بكرسيها المتحرك وكأنها تستكين لأمر سجانها. سنوات كئيبه مرت .. طويلة .. كليالى الشتاء البارده وما أكثرها فى حياتها التى توقفت عن الدوران حين رحل زوجها (جلال) .. حين هاجر ولدها الوحيد (حامد) إلى بلاد الغربه ولحقت به إبنتها الحبيبه (منى) مع زوجها عادل .. ولم يؤنسها سوى صورة صغيرة تضعها فى البوم الذكريات. ضربت الأرض بعجلات كرسيها المتحرك ونظرات عينيها ترقب باب الشقة : .أهكذا ترحلين مبكراً يا أم حسين .. دون أن تعدى لى فنجان قهوة .. لكنها أنتبهت أن هذا موعد انتهاء عمل أم حسين وعودتها لزوجها وأولادها .. هكذا تعودت على ذلك منذ سنيين .. ربما كانت سنواتها الأخيره الماضيه إختلفت كثيراً وهى قعيده بكرسى متحرك أصابتها بجلطة بالمخ كادت تودى بحياتها بعد أن وجدت نفسها وحيدة فى هذه الحياة سوى من بضع خطابات كتبت على عجل ألقاها حامد ومنى فى صندوق البريد لتأتى إليها .. تقرأها مرات ومرات . دفعت فجأة عجلات كرسيها فى أتجاه المطبخ ورغبة قوية .. ملحه

تتولد داخلها أن تعد بنفسها فنجان قهوة .. هى لم تدخل المطبخ منذ سنين .. لكنها قررت اليوم ذلك بصوت عالي وكأنها تحدث زوجها .. نعم يا أبو حامد .. سوف أعد لك فنجان القهوة بيدي تصفحت عينيها أركان المطبخ عجزت أن تصل بيديها إلى مكان السكر أو البن .. حاولت مرات ومرات .. تشبثت بأحد الأرفف .. الكرسى يتداعي يميناً ويساراً .. تكاد تسقط .. لكنها حاولت مرات أخرى .. أنزلق الكرسى فجأه من تحتها .. سقطت على الارض زحفت .. حبت طفلة تبكى .. تدحرجت خارج المطبخ . صرخت .. - أدركنى يا أبو حامد .. أدركني يا جلال .. أدركينى يا أبنتى الحبيبه .. يا أم حسين سكنت عاصفة بكائها .. حاولت أن تستعيد حالتها .. إنتبهت إلى وجود الكرسى خلفها وأنها مازالت قابعه على باب المطبخ .. حاولت أن تمسك بالباب .. ترنحت .. زحفت فى إتجاه الباب .. تشبثت به مرة أخرى .. أمسكت بالكرسى .. رغبة قوية دفعتها للسقوط فوق الكرسى .. عانقته .. أعتدلت فى جلستها وشئ يزلزل كيانها .. دقات قلبها صفير قطار هائج .. تعاود البكاء من جديد .. لحظات ثقيلة .. رأسها بين يديها هي لم تسترح فى بيت المسنين حين قررت ذلك وسط وحشة حاصرتها فأرادت أن تعيش مع رفيقات عمرها وذكرياتها ولكن لم تشعر بالحب والرغبة فى الحياه إلا فى وجود خادمتها (أم حسين) رفيقتها منذ زواجها. أتى الليل موحشا .. طويلاً .. سجاناً .. جلاداً .. تقفز حولها الهواجس والكوابيس .. تحاصرها فى كل ركن .. تنتزعها من كرسيها المتحرك .. تلقى بها على الارض .. تحاول أن تضرب الأرض بقدميها .. عاجزة .. لم تعد الدموع دواء أو شفاء لها فى وحدتها .. جلاد الليل يجلدها .. تتلوى .. تهرسها أقدامه بلا رحمه .. أبواب اليأس والوحدة تطوقها .. تصرخ بلا صمت .. تغمض عينيها مستسلمه .. خطوات تقترب .. بصيص من ضوء النهار يتسلل خلال باب الشقة .. تدخل أم حسين حاملة اللبن الطازج إلى سيدتها وهى ملقاه على الارض .

(تمت)

لقمة هنية

استسلمت للمصيبة التي جرني إليها «عثمان» حين كان يأتي بأصحابه واحدًا وراء الآخر.. يقبض الثمن خارج الحجرة وأنا في الداخل أدفعه على فراش القهر والعهر.

كان من الصعب أن تستمر حياتنا وسط ظروف المعيشة الصعبة.. غمامة سوداء.. صقر شرس يحوم في الأفق يترقب أن يحكم عشًا حاولت المحافظة عليه.. لكن أمام خصخصة المصانع وطرد بعض العمال ضحايا تحت أقدام الملاك الجدد.. كان زوجي «عثمان» أحد هؤلاء.. وحين عجز زوجي عن البحث عن عمل ضاع وسط جلسات المزاج و«الجوزة» ورفاق السوء، بل كان أحيانًا يجبرني على إعداد «القعدة» وتقديم «المزة» وزجاجات البيرة لرفاقه.. هؤلاء المساطيل الذين كانت تأكلني عيونهم ذهابًا وإيابًا.. حتى فاجأني أحدهم في غرفة نومي وأنا عارية واغتصبني وبين أحضانه راح يحرضني على الحرام:

- أنا هاغرقك فلوس.. كل اللي نفسك فيه.. عثمان خلاص أنا اللي دفعت له ده يا «هنية».

جننتُ.. صرختُ بلا جدوى وكل ذلك وكان زوجي يسبح بين خيوط الدخان الأزرق والمخدرات التي قتلت فيه رجولته وشهامته.. صدمني حين ألقى على مسامعي كلماته ذات ليلة سوداء.. طلقات رصاص.. يطالبني بأن أكون فريسة لرفاقه مقابل بعض المال.. صرخت.. رفضت.. هددته بفضيحة.. اتهمته بالجنون..

هددته بترك المنزل على الرغم من أنني لا أملك مكانًا آخر يؤويني وأنا وحيدة في هذه الحياة بلا أهل.. يتيمة الأب والأم.. وأولادي أتركهم لمن؟ حاولت أن أعيده إلى رشده.. هذا الزوج الذي بلغ الخمسين من عمره.. صرخت في وجهه:

- انت اتجننت يا عثمان؟ عايزني أعمل كده؟ فين كرامتك وشرفك؟ فين شغلك وفلوسك؟ خلاص ما بقاش حل غير اللقمة الحرام؟!

أصم أذنيه وأصر على قراره.. بل راح يقنعني:

- هو ده الطريق الوحيد لحل مشاكلنا.. أنا تعبت.. اتهديت.. وبعدين انتي جميلة وحلوة وممكن تاخدي فلوس من غير ما الراجل يلمسك.. صدقيني يا هنية.. عايزين نعيش بقى، ده احنا معانا خمس عيال.. أجيب لقمة ولا هدمة ليهم منين؟

استسلمت للمصيبة التي جرني إليها «عثمان» حين كان يأتي بأصحابه واحدًا وراء الآخر.. يقبض الثمن خارج الحجرة وأنا في الداخل أدفعه على فراش القهر والعهر.. لم أعد أملك الرفض أو التوقف بعد أن هددني «عثمان» بأن يلقي بابنتي ذات الخمسة عشر عامًا للرذيلة وأنا أصرخ وأستكين وأخفي عن أولادي هذا العار.. هذه الفضيحة.. والحق أن «عثمان» قد دمرته المخدرات ولم يعد الرجل الذي تزوجته.. والحق أنني عشقت متعة الحرام وأشبعت رغباتي ورقصت بين أحضان الرجال.. بل طلبت من زوجي المزيد والمزيد.

وكان لا بد أن تكون لـ«عثمان» نهاية معي فأغرقته بالمال. وأمام عجزه ونهمه أصبح تابعًا لي.. تحت قدمي.. وارتديت الحلي الذهبية التي كانت حلمًا مستحيلاً.. وحققت أحلام أولادي وبناتي الأربعة بعد سنوات حرمان.. ولم تعد علاقتي بزوجي «عثمان» سوى أنه قوَّاد يأخذ أجره فقط.. يجمع لي زبائن المتعة الحرام ويقبض ثمن شرفه وشرف زوجته العاهرة.. واشتهرت شبكة المتعة التي كوَّنَّاها معًا لممارسة كل أنواع الحرام.

لكن «عثمان» لم يقنع بما حصل عليه مني أو سمسرته من الزبائن.. بل زاد جشعه وطمعه وطالبني بالمزيد فرفضت فأضمر في نفسه أمرًا.. ولم أشعر به إلا حين اقتحم الشقة ذات ليلة رجال مباحث الآداب وهو يبكي في صحبتهم

من أجل شرفه وما أصابه من عار الزوج المخدوع في زوجته العاهرة.
وكان لا بد أن أكشف حقيقة هذا الذئب الذي دمرني ودمر أولادي.. بل أرد أن يدخلني السجن ويشرد أولادنا الأبرياء بلا ذنب.. واندفعت سيارة الشرطة وأنا و«عثمان» بين الجنود مكبلين بالحديد.. بينما يعدو أولادنا خلف السيارة وهم يصرخون بينما يلقي الجيران علينا باللعنات.

(تمت)

القناع

سقطت الأقنعة.. كشف الواقع عن الوجه الحقيقي لكل منهما.. ولم يبق بينهما سوى المواجهة..

حوَّل البيت إلى ما يشبه السجن.. قوانين صارمة.. حرَّم عليها الوقوف في الشرفة.. حتى الابتسامة أمام أي رجل غريب.. ربما لو كان في استطاعته أن يمنعها من الضحك أمام شاشة التليفزيون على أثر مشهد كوميدي لفعل.. وعلى الرغم من اعتراض «هبة» على تصرفات زوجها «مدحت» وعقده المرضية فإنها كانت تبتلع تصرفاته في امتعاض وتكظم غيظها.. ربما كان يخفف عنها صمودها وإصرارها على الاستمرار في العمل وعدم البقاء بالبيت.. وهذا الأمر كان سر عذابه وغضبه وغيرته العمياء.. لا لجمالها فقط بل لما يفعله بعيدًا عنها في عمله وما يراه من زميلاته.

أمام أوامر «مدحت» التي لا تنتهي في بيته كان في الصباح وبمجرد خروجه من المنزل وفي الطريق إلى عمله شخصًا آخر تتغير ملامح وجهه من الكآبة والجمود إلى الحيوية والنشاط والمرح.. قناع جديد يزين وجهه ويقلب صورته، بل وسلوكياته بين زملائه، وزميلاته بصفة خاصة.. يداعب هذه ويضاحك الأخرى أو يغازلها غزلاً صريحًا أو غير صريح.. حياة أخرى غير التي يحياها «مدحت» مع «هبة» التي أحبها ولم تحبه بل تزوجته من قبيل «ضل راجل ولا ضل حيطة».

لكن «هبة» هي الأخرى لم تكن سوى صورة أخرى من هذا القناع الذي تعود «مدحت» على ارتدائه قبل خروجه من البيت أو عند عودته من العمل.. فقد كانت «هبة» تعد بعد خروجه ماكياجًا صارخًا وتخرج في أوج جمالها.. يسبقها عطرها النفَّاذ.. تتراقص حولها ضفائر شعرها الطويل كجناحين مع الهواء.. تتلوى الأعناق حين تهل وسط زملائها في العمل..

توزع ابتساماتها في سخاء.. هنا وهناك.. وأحيانًا كثيرة تجلجل ضحكاتها المثيرة فتشعل القلوب نارًا لا تهدأ.. تشبع عيون زملائها العطشى بالإبحار في عينيها.. وهما كعيون الحور.. كانت هي الأخرى عطشى إلى نظرة حب.. ابتسامة تسعد قلبها وسط حالة الكآبة التي صنعها حولها «مدحت» في سجنه الذهبي.. وبالطبع تمحو ماكياجها وقناع وجهها لترتدي النسخة الثانية من القناع الذي صنعته للقاء «مدحت» في البيت.. يتلاقى صاحبا القناعين المخادعين على أبواب كهفهما المظلم.

صدفة التقت «هبة» زميلة دراستها «هدى».. وحين أخبرتها بقصة زواجها من «مدحت رشدي» كانت المفاجأة.. «مدحت» يعمل في الشركة نفسها التي تعمل بها صديقة عمرها «هدى».. أما المفاجأة الثانية فما كشفته «هدى» عن «مدحت» وخفة ظله ومداعباته وسخائه بين زملائه، وزميلاته بصفة خاصة.. كتمت «هبة» داخلها همومها وصدمتها في هذا الزوج صاحب العقد النفسية الذي حوَّل حياتها إلى جحيم.. دفعها لقناع ربما هو حياتها الطبيعية على الرغم من أنه كان يملك أن يحتويها بحبه ومعاملته لها كزوجة وحبيبة لا كسجينة في كهفه والتي ألقت بنفسها فيه بقرار أُكرهت عليه أمام رغبة أمها في زواجها والاطمئنان عليها بعد وفاة والدها..

لكن المفاجآت لم تكن لتنتهي عند هذا الحد.. فقد استمع «مدحت» ذات يوم لمكالمة تليفونية كانت «هدى» تحدث زوجته «هبة» في تقرير عن سلوكيات زوجها المخادع في عمله وآخر غرامياته.. لم يفهم «مدحت» من المكالمة سوى ضحكات «هبة» عن رجل مخادع وغبي.. يتوهم أنه أذكى الرجال.. ساوره الشك وحاول بطرق مختلفة معرفة مضمون المكالمة.. تارة بوجهه الخشبي وأوامره

وتحقيقاته مثل رجال الشرطة.. ففشل في الحصول على أي معلومات.. وتارة بالحيلة وفشل أيضًا..

و«هبة» ساخرة.. تراه يتقلب على نار طوال الليل.. يدخن سجائره في نهم.. وتعودت «هدى» أن تغلق سماعة التليفون حين يرد هو عليها أو لا ترد.. ما يزيده غضبًا وهياجًا.. كاد يتهم «هبة»، لكنه تراجع أمام نظراتها التي تلقي سهام الشك والاتهام داخله.. بل يشعر أنه عارٍ من كل شيء أمامها.

وأضمر «مدحت» في نفسه أمرًا حين أخبر زوجته «هبة» بأنه لن يذهب إلى عمله لأنه متعب وسوف يخلد للنوم حتى تعود هي من عملها.. ودَّعته كعادتها في رقة وهو كذلك.. رماها بقبلة وخرجت أمامه بقناعها اليومي.

لكنها بمجرد خروجها قفز يرتدي ملابسه.. وراح يراقبها حتى مقر عملها.. بل انتظر ساعة ثم صعد إلى مكتبها ودون أن يدعها تراه.. رآها.. رأى «هبة» في صورتها التي لم يعهدها أو يتعودها.. ربما قبل أن يرتبط بها قبل فترة الخطوبة التي لم تدُم أكثر من شهرين.. أدهشته ضحكاتها.. قوامها.. رقة تعاملها مع العملاء.. مع زملائها.. رأى صورته في صورتها.. رأى قناعه يشبه قناعها.. جزَّ على أسنانه.. اشتاط غضبًا.. قرر أن يجذبها من شعرها ويلقي بها أرضًا.. يحطم ضلوعها.. يصنع لها فضيحة وسط محل عملها.. يجعل منها أضحوكة بين الجميع.. تردد.. تراجع عن قراراته.. تراجعت خطواته حين رآه أحد زملائها الذي يعرفه.. أسرع الخطى خارج المكان وعلمت «هبة» بزيارته إلى محل عملها.. وأدركت أن هناك معركة أو مواجهة تنتظرها في البيت.. واستعدت لها.

وفي البيت وقف متحفزا يرتدي قناعه المزيف.. أما هي فقد دخلت المنزل وهي تغني إحدى أغنيات حليم «حلو وكداب».. صرخ في وجهها.. واجهها بما رآه.. فضحكت ساخرة.. لم تمنحه اهتمامًا بصراخه وتوعده وتهديداته.. بل أسرعت تفتح الباب لضيف صديق.. «هدى» صديقتها.. احتضنتها في شوق.. رآها «مدحت».. أصابته ارتباكة شديدة.. تعثرت الكلمات على لسانه وهو يصافحها.. بل تعثرت قدماه وكاد يسقط من هول المفاجأة.. وأتقنت «هدى»

الدور الذي رسمته لها «هبة» ودهشتها حين علمت أن «مدحت» زميلها في العمل زوج أعز صديقاتها.

وسقطت الأقنعة.. كشف الواقع عن الوجه الحقيقي.. ولم يبقَ بينهما سوى المواجهة.. تساءل داخله كيف تستمر حياته معها وهو المخادع؟ وتساءلت داخلها كيف تستمر حياتها معه بعد أن اكتشف خداعها له؟

تلاقت الوجوه عارية من الأقنعة.. من الخداع.. من كل شيء.. فجأة انتابته حالة من الضحك الهستيري.. في دهشة وسخرية نظرت إليه «هبة» ثم انفجرت هي الأخرى وراحت ضحكاتها تجلجل في المكان.

في رقة.. اقترب منها:

- ضحكتك حلوة قوي يا «هبة»..

اقتربت منه.. في دهشة:

- مش مصدقة.. دي ضحكتك بجد يا «مدحت» هي اللي حلوة قوي.

وراحا يرقصان ويضحكان وتساقطت حولهما بقايا أقنعة تحترق.

(تمت)

عار ونار

الظمأ يقتلني.. يأخذني لأحضان رجل يتقلد عرش جسدي.. يروي ظمئي.. يدفئني.. يذيب الجليد الراقد.. يأخذني لعالمه المسحور بعيدًا عن الوحدة والوحشة.. الموت البطيء..

ألا تذبل الزهرة حين يهمل البستان سقياها؟! ألا تموت أيضًا؟! أنا امرأة في الأربعين من العمر.. رحل عنها زوجها منذ عشر سنوات.. وحيدة بلا أنيس.. جميلة وسط حصار الطامعين من الرجال.. أربعة أولاد أرعاهم بحرص.. هم في عمر الزهور: «سماح» و«وائل» و«سندس» و«هاني» ابني البكري وسندي الذي ينهي دراسته بالجامعة هذا العام.. سوف يصبح طبيبًا أشرف به أمام الجيران والحي كله. ترك زوجي الراحل «عبد العزيز» محلاً كبيرًا لبيع الأدوات الكهربائية والمنزلية أقوم بإدارته وأحيانًا يساعدني «هاني» في أثناء ذهابي لشراء بعض «البضاعة»..

ما زالت كلمات زوجي الراحل حولي:

- خلي بالك من العيال والمحل.. ده كل اللي جنيته من كفاح السنين يا «إخلاص»..

- ربنا يديك الصحة يا «عبد العزيز».. ليه بتقول كده؟

- أنا خلاص.. ما عادش يفيد غسيل الكلى كل أسبوع.. تعبت وتعبتك معايا.

- ربنا يجعل يومي قبل يومك.. أنا ما اقدرش أعيش من غيرك.. انت جوزي في الدنيا.

أنا لا أنكر أن «عبد العزيز» ما زال حبه في قلبي..

كنت عاشقة ومخلصة له.. لكن السنين تمر قاسية.. ليالٍ وليالٍ.. يرقد الجسد اليافع وسط جليد يتراكم يومًا بعد يوم.. رغبة مجنونة وسط برودة المشاعر والفراش المرتعش.. يعذبني شوقي لدفء أحضانه.. الظمأ يقتلني.. يأخذني لأحضان رجل يتقلد عرش جسدي.. يروي ظمئي.. يدفئني.. يذيب الجليد الراقد.. يأخذني لعالمه المسحور بعيدًا عن الوحدة والوحشة.. الموت البطيء.

وعلى الرغم من أن مرآتي وحدها هي التي تحتضن شكواي وحرماني.. فإن رجلاً واحدًا هو الذي احتل تفكيري.. «جابر» رفيق زوجي في عمله وحياته.. وهو الوحيد الذي رافقني في رحلة علاج «عبد العزيز» في أيامه الأخيرة.. يسأل عني وعن أولادي بصفة دائمة..

كان «جابر» يعشق - مثل زوجي - مشاهدة أفلام الفيديو الفاضحة بل وأدمنت أنا الأخرى مشاهدتها مع زوجي في ليالٍ أكثر سخونة من هذه الأفلام.. وتركها زوجي لكي تؤنسني وتشغلني حين أختلس مشاهدتها بعيدًا عن أولادي في ظلمة الليل.

راحت مقاومتي وجسدي يستجيبان لمداعبات «جابر» وكلماته المعسولة في غياب أولادي.. أثار جسدي الراقد منذ سنين حين كان يداعب أناملي عند مصافحتي.. وأدمنت رؤيته في المحل.. في البيت عند حضوره للسؤال عني وعن الأولاد في حضورهم أو غيابهم.. أدمنت الرقص في أحضانه واستسلمت دون وعي.. كم من الليالي أخذتنا المشاهد الساخنة لنكملها على فراش بارد وجسد محموم ورغبة متوحشة بعيدًا عن أولادي في أحضان «جابر» وأنا أختبئ مطمئنة في أحضان «جابر».. أفاجئه:

- أنا قلقانة قوي يا جابر.. خايفة من الناس.. خايفة من العيال يعرفوا حاجة.. خايفة من ربنا.

وهو يداعب شعري:

- ما تخافيش يا إخلاص.. أنا.. أنا...

أتوسل إليه في حب:

- إحنا لازم نتجوز.. لازم نتجوز على سنة الله ورسوله.

- هرب ليالي لم أرَه فيها.. والتقيته وراح يتعلل بزوجته وأم أولاده والناس.. و«هاني» ابني.. راح يطرح فكرة الزواج العرفي من أجله ومن أجلي ومن أجل العائلة وأملاك المرحوم «عبد العزيز».. يفاجئني:

- الحل إننا نتجوز عرفي.. وده جواز برضه أمام ربنا وبعيد عن الحرام.

راح يزورني «جابر» في وضح النهار ووسط أولادي الذين كانوا ينادونه بـ«عم جابر».. يعلمون أنه كان صديق والدهم وراعيهم بعده.. ولكن يسألني «هاني» فجأة:

- إيه حكاية الأسطى جابر وزياراته لينا بمناسبة وغير مناسبة يا أمي؟

مرتبكة بعض الشيء:

- بيسأل علينا يا هاني.. إيه المشكلة؟ مش ده عمك جابر صاحب المرحوم أبوك اللي كنت بتحبه؟ إيه اللي جرى؟

- بس الوضع دلوقتي مختلف يا أمي.. إحنا لوحدنا وانتي ست أرملة.. وكلام الناس ما بيرحمش.

- الناس مالهمش غير الكلام.. وما حدش ليه حاجة عندنا.

- إزاي؟ إحنا عايشين وسط الناس.. أهلنا اللي بيخافوا علينا.. ثم ربنا ما قالش كده.. ما قالش إن راجل غريب يدخل دارنا.

فضَّلت أن أنهي مناقشتي مع «هاني» دون صدام وأقنعته بمنع «جابر» من دخول بيتنا وأرضيته لأزيل القلق بداخله.. لم يعد «هاني» كما كان.. دائمًا كان ساهمًا ببصره في صورة والده المعلقة على الحائط وأحيانًا أجده مع الصورة التي حرص على أن يضعها على محموله.. فقد كان يحبه بجنون ومتعلقًا دائمًا به.. كان يريد أن يراه والده وهو يرتدي الروب الأبيض وعلى صدره تتدلى السماعة.. لكن القدر أراد أن يرحل عن عالمنا دون أن يفرح به وأصبح «هاني» عصبي المزاج.. يغضب لأتفه الأسباب.. وعلى الرغم من أنه في السنة الأخيرة في كلية الطب فإنني لاحظت إهماله لدراسته:

- لا يا هاني.. دراستك وانت أهم حاجة في الدنيا دي عندي.

- واخواتي؟ وأبويا اللي مات؟

- انتم كل حاجة في حياتي، وأبوك الله يرحمه عمري ما أنساه يا هاني.
اطمئن قلب «هاني» وعادت بعد أيام ترفرف الابتسامة على وجهه بينما اشتعل شوقي إلى «جابر».. أسبوعان ولم أرَه.. حتى المحل لم يعد يمر أمامه منذ صارحته بما حدث بيني وبين ابني «هاني» وطلبت منه ألا يحضر حتى يهدأ الأمر.. لكني لم أعد قادرة على الاحتمال.. طلبته على الهاتف أكثر من مرة ولم يرد.. حتى فاجأني بالرد مرة في برود.. توسلت إليه..
- انتي اللي طلبتي مني كده.. عايزة إيه تاني؟
- انت عارف يا جابر إني ما اقدرش أبعد عنك أبدًا.. نتجوز زي ما اتفقنا وفي السر وما تزعلش، هاعوَّضك كل اللي فات.
- أنا محتاج ألف جنيه علشان شوية هدوم للولية وعيالها أسد بقها شوية..
- من عيني.. خد يا اخويا.. أشوفك الليلة.. «هاني» بيذاكر عند واحد صاحبه وهيبات عنده.
ليلة رقصت على أعتاب الرغبة المحمومة.. زرعت كل زهوري استعدادًا للقاء شوق الأيام الماضية.. كأس شربناها معًا.. تملكتنا نشوة تأججت في أنحاء جسدينا اللذين توحدا جسدًا واحدًا.. رويت ظمئي وحرماني.. عريانين في فراش الراحل يقتحم خلوتنا فجأة «هاني» الذي أذهله المشهد ولم أرَ سوى نظرة تشبحني شيطانًا أو وحشًا.. لم ينبس بكلمة واحدة بل صرخ صرخة مروعة.. وخرج مذعورًا.. بينما راح «جابر» خلفي يلملم أطرافه الهشة.. نجمع ملابس متناثرة يلطخها وحل الحجرة.. على عجل رحت أجمع أشتات أفكاري ذاهلة.. زلزال يهز أركان بيتي.. حياتي.. وفرَّ «جابر» هاربًا.. غارقًا في وحله وأنا وسط صمتي عاجزة عن تبرير فعلتي أو الدفاع عن جريمتي.
صرخات مروعة تنتزع عقلي.. وجودي.. صراخ أولادي.. صراخ الجيران.. أرتدي نصف ملابسي.. أقفز رعبًا لتقصي الخبر.. تفزعني صرخات «هاني» وأنا أرى النار تشتعل في جسده وأنا أقف ذاهلة.. يشل المشهد تفكير الجميع.. «هاني».. ابني يحترق.. بقايا نظرة لوم من عين تحترق.. تحرقني.. تحاصرني الفضيحة بعيونها.. البيت.. الحارة.. حياتي كلها.. وأنا أصرخ.. أضحك: هاني.. هاني.. هاني.

(تمت)

نهايته على يد عصفور

لا يملك سوى أن يلوّح بيده يحييها.. يرسل قبلاته العطشى إلى السماء الرحبة.. إلى طيره.. إلى محبوبته الملاك.

أحبه الجميع لدماثة خلقه وطيبة قلبه وحلاوة لسانه.. هكذا ورث هذا الشاب المكافح اليافع أخلاق والده «حسن النجار».. بل ورث مهنته أيضًا..

كان «نهاية» واحدًا من أهل قرية «المنيرة» - إحدى قرى مركز القناطر الخيرية - كان يجوب حواري القرية وشوارعها بحثًا عن إصلاح دولاب أو سرير أو بيع وشراء الموبيليا القديمة أو الجديدة.. كانت جيوب جلبابه لا تفرغ من الحلوى (الكراملة أو الفوندام) يوزعها على الأطفال في كل حارة أو شارع يلقونه فيه.. اتهمه البعض بالجنون أو العته حين كانوا يرونه يشارك الأطفال مرحهم ولعبهم.. كان رجلاً يعيش بقلب طفل.. وطفل كبير يضحك ويبكي على صدر أمه.. وحيدها ورجلها الذي أبى أن يتزوج ويترك أمه المريضة أو جدران بيت كتب عليها خواطره لمحبوبة لا وجود لها إلا في خياله..

دأب «نهاية» على الجلوس تحت شجرة الجميز الراقدة في مواجهة السكة الحديد.. يمسك بعصاه يرسم على سطح الماء عصفورة.. وردة.. وجه محبوبة يراها في أحلامه تطير بجناحين.. تلوّح بيديها تدعوه للطيران.. يمد يده.. يعجز أن يلمس الهواء.. القمر.. النجوم.. لا يملك سوى أن

يلوِّح بيده لها يحييها.. يرسل قبلاته العطشى إلى السماء الرحبة.. إلى طيره.. إلى محبوبته الملاك بل تمنى أن يكون طيرًا بجناحين.. يطير.. يلقى محبوبته. ضحكات.. قهقهة «عزوز» و«عبد المتجلي» و«إسماعيل» تنتزعه من حلمه.. من نوبة نعاس تحت شجرة الجميز العتيقة:

- إيه يا أبو النهى؟ انت نمت؟ ماجتش ع الجسر النهارده ليه؟

- عيني غفلت يا عزوز. وبعدين فيه أجمل من الجو ده.. والجمال ده؟

- إيه الحديت ده؟ انت بتسمع الراديو ولا التليفزيون خرب عقلك؟

لم يك «نهاية» شابًا عاديًا.. كان حالمًا.. يرق قلبه لبكاء طفل أو حزن أمه التي كافحت بعملها لدى بيوت الأغنياء بالقرية حتى ثار عليها يومًا ومنعها:

- لا يامّا.. كفاية كده.. أنا بقيت راجل.

- أمرك يا ابني.. مش هاشتغل بعد النهارده.

لماذا اسم «نهاية»؟ هل لم يجد أبي اسمًا غيره يطلقه على ابنه الوحيد؟ عجز أن يجد إجابة عن سؤاله، سواء لدى أمه أو حتى أصدقاء والده.. ولكن ربما كان يشعر والده بنهاية حياته عند مولد هذا الابن الذي سوف يحمل اسمه ومهنته ويكون «عيلة» تكون امتدادا لـ«حسن النجار» الذي كان دائمًا يردد:

- أنا انقطعت من شجرة.. والواد «نهاية» اللي هيعمل عيلة.. والناس ساعتها تقول دي عيلة حسن النجار.

قرر ألا يرهق نفسه في البحث عن سبب لاسمه الغريب.. عاش محبًا للأطفال.. عاشقًا لملاك يأتي بجناحيه في أحلامه.. استسلم لواقعه.. كان يقضي وقته مع رفاقه «عزوز» و«عبد المتجلي» و«إسماعيل» على «غرزة عصفور».. رفضوا ما كان يبيعه مالكها «حماسة عصفور» من بانجو وبعض المكيفات الأخرى.. فلم يكن يدخن أو يتعاطى مثل هذه المكيفات.. كان فقط كوب الشاي هو الذي يحتسيه ولا تخلو جيوب سرواله من الكراملة أو الفوندام.

ذات ليلة راح يسخر منه «عزوز» حين علم بما فعلته «زينات» زوجة سويلم أثناء قيامه بإصلاح سرير ودولاب في بيتها عندما حاولت إغراءه لمعاشرته في الحرام.. صفعها على وجهها وهرب كالطفل المذعور دون أن يحصل على

أجره بل ترك «مداسه» وجرى حافي القدمين:

- إيه الحنية دي؟ دي مرة زي القمر.. تجري وتفوتها زي العبيط؟!

- عيب يا عزوز الكلام ده، أنا عمري ما فكرت فيه ولا أفكر في الحرام أبدا.

- يا وله فوق بقى.. الولية جوزها مسافر وعطشانة.. اسقيها.

- أستغفر الله العظيم.. انت.. انت شيطان يا عزوز.

يتركه ويذهب إلى المسجد لصلاة العشاء، وكما تعوَّد لا بد أن يعود مبكرًا، فلم يتعوَّد السهر خارج بيته..

- مساء الخير يامّا.. اتعشيتي ولا زي عادتك؟

- يا ابني أنا ما اقدرش أحط لقمة في بقي من غيرك.. ده انت ابني وراجلي.. إمتى أفرح بيك يا نهاية؟

- يامّا أنا مبسوط كده.. ثم اللي هتتجوزني هتتجوزني على إيه؟ إحنا على قدنا يامّا.

- لا يا ابني علشان خاطري.. أنا أعمل لك جمعية وأخطبلك البت هنية بنت الحاج مصطفى اللي قصادنا.. ناس طيبين والبت طيبة ومنكسرة.. مش زي بنات اليومين دول.

راح بعيدًا مع حلمه.. مع ملاكه الذي تعوَّد زيارته في أحلامه نائمًا أو في أحلام اليقظة.. ها هي بعيدًا تلوِّح بجناحيها أن يلحق بها.. حين روى حلمه لأمه انقبض قلبها.. خشيت أن يكون «ابنها» قد مسته «جنية» أو قد صار مخبولاً لأنه يعيش وحيدًا.. أو ربما ما تناديه نذير شؤم عليه..

- خير.. خير يا ابني.. أهم حاجة تصلي وتبعد عن الناس ولاد الحرام وما تتأخرش بالليل أو تمشي في العتمة.

كان «نهاية» يطمئن أمه أنه بخير.. وكأنه يخفي عنها سره أنه تعلق بهذا الملاك وكأنها محبوبته التي حتمًا يومًا سوف يلقاها.. وكان يسخر منه «عزوز» كعادته هو ورفاقه:

- وانت بقى يا ترى نهايتك على إيد مين؟ عروسة ولا جنية؟

- دي نهايته هتبقى على إيد حداية.

- بلاش الحديت ده يا عزوز.. كل حاجة عندك هزار؟!
- صلِّ على النبي يا جدع.. ده بيضحك.. نهايتك بيضا إن شاء الله.. علشان قلبك أبيض.
نعم كان قلب «نهاية» كما يقول الجميع «زي البفتة البيضا».. كان يحب كل الناس ولا يكره أحدًا؛ لذلك أحبه الجميع إلا «حماسة عصفور».. كان يكرهه لعدم مشاركته جلسات خيوط الدخان الأزرق وليالي العاهرات.. وكان قد خرج مؤخرًا من السجن؛ فقد كان محبوسًا على ذمة قضية مخدرات ومع ذلك ما زال في الطريق نفسه.. كان صبيانه حين يعلمون بالخطر في قدوم حملة مكافحة المخدرات يسرعون في رفع العلم الأحمر على الغرزة لتحذير زبائن الغرزة من المدمنين.
- رايح فين يا أبو النهى؟ الوقت لسه بدري والليل ما ليِّلش.. ولو ليِّل.. يا جدع يحلى السهر.
- أنا يا حماسة ماليش في الليل بتاعك وطريقك مش طريقي..
- هتروح بدري كده تعمل إيه؟
- أنا متعود على كده.. مش زيك.. كل اللي يشغلني شغلي وأمي.
ساخرًا:
- أمك؟ سلم لي على أمك.
راح يلقي اللعنات خلفه.. بينما ذهب «نهاية» لإصلاح «البنك» لمحل «أبو إسماعيل» البقال.. حاملاً أدوات النجارة على كتفه ولم يكن يشغل «حماسة» أن يشارك «نهاية» لياليه ومكيفاته، بل كان يريد فقط أن يتأكد مما سمعه أنه ورث عن والده بعض المال ويريد أن يستولي عليه.
- هو صحيح الوله «نهاية» وارث قرشين كويسين عن أبوه النجار؟
يجيبه «عرومي» - أحد صبيانه -:
- لا يا معلمي، أنا ما اعرفش الموضوع ده.. لكن يومين كده وأعرف لك حكايته.
وبالفعل ينجح الصبي في أن يأتي بأخبار «نهاية» حين على في قعدة مزاج بالحرام الذي يرتديه «نهاية» على وسطه ويضع فيه ما يحصل عليه من أجرة

في إصلاح الموبيليا.. «تحويشة العمر»..

- «نهاية» ده واد حريص، بيحوِّش علشان يتجوز يا سيدي، على وسطه ميت ورقة.

- انت متأكد يا جدع؟ ده الوله غلبان وفقري.

- يا جدع صدقني.. طب روح كده هات لي تعميرة تمام.

وتأكد «حماسة» من المعلومات التي أتى بها الصبي عمَّا يخفيه «نهاية» حول وسطه وأضمر داخله أمرًا قرر تنفيذه..

وذات ليلة ترك الغرزة مبكرًا.. متسللاً إلى عشيقته التي تعوَّد أن يلقاها في عشة مهجورة وسط الغيطان في غياب زوجها.. إنها «زينات» التي ظنت أن «نهاية» فضحها بعد أن رفض فعل الحرام معها.. وخطط العاشقان في عشة الرذيلة خطة الانتقام.. وذات ليلة برقت السماء واهتزت القرية برعدها وراح المطر يغطي طرقاتها ترعًا وقنوات.. بل تراقصت الأشباح على الأرض في كل مكان.. وهناك وسط الظلام جلس يترقب «حماسة عصفور» عودة «نهاية» إلى داره:

- رايح فين يا «نهاية»؟

- مين؟ «حماسة».. خير فيه حاجة؟ مروح داري.. لكن انت...

- أنا الليل بتاعي.. والليلة يحلى السهر..

- أنا مش بتاع سهر.. تعبان ورايح أنام.

- بس أنا عايزك في شغلانة.. اصبر، اسمعني الأول.

- نعم.. خير؟

- فيه حتة موبيليا لازم أنقلها البيت في المركز ومحتاجة شوية تصليح مع كرسيين كده.

- الصبح.. الليلة دي ما ينفعش.

- صدقني أنا محتاج أنقلهم الصبحية.. دول مش هياخدوا وقت.. ساعة زمن.

- ماشي أمرك.. اتفضل.

اصطحبه «حماسة» إلى داره.. هناك أخرج «نهاية» أدوات النجارة وراح يعمل

بهمة في إصلاح الدولاب.. قدم «حماسة» كوب الشاي له ولم ينسَ أن يغمس فيه بعض المخدر.. حاول أن يعرض على «نهاية» تدخين سيجارة محشوة بالمخدرات لكنه رفض.

لحظات وأحس «نهاية» بخدر يسري في جسده.. حاول أن يتماسك، لكن فاجأه «حماسة» بلكمة في وجهه أفقدته الوعي.. صرخ «نهاية».. وخشية الفضيحة عاجله «حماسة» حين دافع «نهاية» عن نفسه بأن خنقه بكوفية تعوَّد أن يدفئ بها عنقه.. سقط على الأرض وهو ينزف.

أسرع «حماسة» يخلع عن «نهاية» ملابسه ووجد الحزام الذي تعوَّد أن يرتديه ويضع فيه تحويشة العمر فوجد مبلغًا زهيدًا هو مائه جنيه هي كل ما وضعه في حزامه.. فقد كان دائم الإنفاق على علاج أمه وشراء الحلوى للأطفال في القرية والعطف على الست «أم الخير» وهي امرأة بها بعض الجنون.. ترمح في القرية وهي تغني.. كان يمنع الأطفال عن رميها بالحجارة.. كانت تستجيب له وتبتسم وهي تربت على كتفه.. فقد كان رحيما بها وبكل الفقراء مثله.

لفظ «نهاية» أنفاسه الأخيرة بعد أن خارت قواه وغرقت الحجرة بدمائه حين جفت جثته.. أسرع «حماسة» ينادي عشيقته «زينات» بأن تساعده في حمل جثة المسكين.. بعد أن عاجله «حماسة» بعدة طعنات وقام المجرمان بحمل أشلاء القتيل بعد تقطيعها بالفأس على حمارين وسط «سباخ الزريبة» لنقلها إلى الأراضي الزراعية ورمي بعضها في الترعة.

وقبل صلاة الفجر تسلل كل من «حماسة» و«زينات» يجران الحمارين حاملين أشلاء «نهاية» التي أنارت السماء لخروجه حين لاحت في الأفق محبوبته ترفرف بجناحيها.. تلوح له.. ويلوح لها مبتسمًا يرفرف بجناحيه وسط ظلام دامس ووحل يغطي أرض القرية بينما راحت صرخات «أم الخير» تشق الفضاء وهي تدق على الأبواب وهي تصيح: «نهايته على يد عصفور» لتكشف الجريمة وتوقظ أهل القرية جميعًا.. لتكشف المجرمَين اللذين قتلا الطهر والبراءة والحب.

(تمت)

البريئة

(1)

دون أن أدري وجدت نفسي مشدودة لهذا الرجل.. تعلق قلبي وكل جوارحي به.. كان «عصمت بك» أحد الزبائن في الكافتيريا التي أعمل بها.. يطلب مني قهوته ويظل بالساعات يتابعني بنظراته التي تتسلل داخلي كالسحر ذهابًا وإيابًا.. اقتحم القلب المغلق بعد عامين من هروب الحبيب إلى بلاد الغربة من أجل مستقبله.. عامين دون خطاب أو إجابة عن رسائلي.. ومللت.. تعذبت من مرارة الخيانة.. يأس شديد أطبق على قلبي أظلم حياتي.

اليوم يدق قلبي بحب جارف.. أمل جديد بداخلي يفتح أبواب قلبي للحياة.. دنيا جديدة أعيشها مع «عصمت» ونحن في أحضان الحب والسعادة.. عشقته.. ارتويت من حبه.

وفاجأني «عصمت» يومًا بأن زواجنا لا بد أن يكون سرًا.. أي «عرفيًا» من أجل «أم العيال» زوجته، وهذا سوف يكون مؤقتًا حتى يعلنه في الوقت المناسب.. صدمني قراره.. حطم حلمي المنشود بأن أكون زوجة وأمًا أمام صديقاتي وجيراني وأهلي.. تساءلت في أسى:

- هل زواجنا جريمة يجب إخفاؤها؟ هل ضاع حلمي بأن أسمع كلمة «ماما»؟

يقفز الموت قريبًا يحاصره بأجنحته.. الأحلام تموت حلمًا وراء الآخر.. الأنفاس تتلاشى.. و«عصمت» على فراش الموت..

لم يتركني «عصمت» للتساؤل أو التفكير، بل أخذني إليه وغمرني بحبه وحنانه وسط دوامة المتعة التي لم يهمد معها حلمي الراقد داخلي.. الذي راح يوقظني في أحلامي.. يوقظ ذاكرتي في أن ما أعيشه واقع.. نعم.. في عناد قررت وواجهته:

- أنا حامل يا عصمت.. لا بد من إعلان زواجنا.

وكان الخبر عليه صاعقة أطاحت بعقله.. فلم أسلم من وعيده وتهديده لي.. ورفضت وواجهت تهديداته في صمود.. وتصديت لوعيده في تحدٍّ.. وتركني وتفرقت بنا الأيام.

صارت الأيام شهورا ولم يسأل عني أو حتى يرسل ما أتقوَّت به.. وأحمد الله أنني كنت لا أزال أحتفظ بعملي.. أما الطفل فقد خرج إلى النور واضطررت أن أودعه في دار حضانة حتى عودتي من عملي.

ويهاجمني الليل الثقيل بهمومه وذكرياته ولمسة يد فجأة تثير في جسدي قشعريرة.. تحرك وجداني حين أتذكر نفسي بين أحضان زوجي الذي أجده أمامي فجأة:

- مش ممكن.. عصمت.. (دمعة حزينة تهاجمني) اليوم فقط تذكرتني..

آخذه دون أن أشعر في أحضاني، يقبلني معتذرًا عن غيابه وغضبه مؤكدًا:

- لا بد أن ننسى كل شيء.. نبدأ من جديد.

أذوب في أحضانه.. تعلو بنا أمواج الشوق والرغبة.. أذكره بوعوده وزواجنا الذي لا بد أن يصبح معلنًا.. من أجل طفلنا.. ويؤكد لي ذلك.. يحتضن طفلنا «نور» كما سميته.. بين يديه راح يقبِّله.. لا أنكر أني كنت أشعر بالخوف.. تتنازعني مشاعر متناقضة أحاول أن أخفيها.

في ليلة من أحلى ليالي عمري.. أعادت ذكريات جميلة.. نيران الحب أذابت ثلوج الليالي القاسية بعيدًا عنه.. راحت ترفرف السعادة من جديد على حياتي.

(2)

ولكن كعادتي لا أومن دائمًا بدوام السعادة؛ فقد تعودت على أن تتربص بي دائمًا المآسي وربما الكوارث.. يترصدني القلق والخوف والحرمان.. تتوعدني

الخيانة في تحدٍّ ربما من أقرب الناس.. راحت يداي تعبثان في دولاب ملابسي تبحثان عن أحلامي.. ذاهلة رحت أصرخ.. عاجزة أن أجمع نفسي المتناثرة هنا وهناك حين لم أجد دليل زوجي (العقد العرفي). فقد قدم الزوج الحبيب إليَّ غدرًا.. ارتويت من سعادة مزيفة.. دس السهم القاتل لي ولطفلي المسكين.. صرخت.. واجهت الخائن.. أنكر في تحدٍّ.. بل في فجور ساومني ما بين الزواج الشرعي والطفل.. كل هذا من أجل امرأته وأولاده.. امرأته.. ابنة عمه المسئول الكبير الذي ورثت عنه الكثير.. وبإشارة منها تلقَّى ملابسه في عرض الطريق.. صرخت:

- وما ذنبي؟ وما ذنب طفلك؟ أهذا لأنني أحببتك بصدق؟ إن الزواج الشرعي حقي وحق طفلي.. سأحاربك من أجله.

ارتميت تحت قدميه.. أتوسل إليه.. رفض.. ساخرا مني في كبرياء وتحدٍّ.. قذفني بأبشع الألفاظ.. بوابل من الاتهامات التي تنال من شرفي وكرامتي.. خطف الطفل من على سريره.. أمسكت به.. تعلقت برقبته.. دفعني أرضًا.. انهال على جسدي ركلاً بالأقدام وطفلي يصرخ.. يقذفه باللعنات.. هذا الأب القاسي.. أنتزع طفلي من بين يديه كالمجنونة.. أحتويه.. أكاد أموت دفاعًا عنه.. عن حقي كزوجة شرعية.

رعشة في جسدي.. دارت بي الدنيا.. رحت أبحث حولي عن شيء.. أي شيء أدافع به عن نفسي.. عن طفلي.. اصطدمت يدي بقطعة حديدة.. إحدى التحف.. بكل قسوة ضربته على رأسه.. سقط بجواري غارقًا في دمائه.. ذاهلة ألقي بوليدي جانبًا.. أسرع إلى «عصمت» آخذه في أحضاني.. أصرخ في جنون مستغيثة بالجيران.. يدق عنقي شريط ذكرياتنا الجميلة.. القاسية.. تحاصرني نظرات «عصمت».. تشبحني وهي ساكنة.

(3)

لحظات قاسية مرت كقطار ينهش أحلامي.. أصرخ بين أيدي رجال الشرطة.. تطاردني لعنات الجيران.. تساؤلات كثيرة وهواجس وكوابيس تتصارع داخلي:

- هل مات «عصمت»؟ ماذا سوف يفعلون لي؟ ما مصير طفلي المسكين؟

تحاصرني اتهامات الشرطة.. تارة بأنني أعمل في الحرام وأن «عصمت» أحد المترددين على شقتي.. و«عصمت» في غيبوبة عن الدنيا قد يفيق وربما يموت.. وأصبح أنا العاهرة.. القاتلة.. ويحمل طفلي عاري مدى الحياة.. أصرخ في وجوه الجميع:

- لا، إنني زوجته شرعًا.. اسألوه أن يجيب.. الحقيقة أنا الزوجة الثانية.

ويعترض الجميع:

- زوجة بلا عقد شرعي.. بلا عقد عرفي.. عاهرة.. زانية.

أصرخ في وجوه الجميع:

- أريد أن أراه.. أواجهه.. أطلب منه الرحمة.. لا بد أن يفيق ليقول الحقيقة.. أنا بريئة.. لست عاهرة.. لست قاتلة.. (أتضرع) يا رب، العدل والرحمة.

وتمر الأيام ثقيلة وأنا قابعة في زنزانة الحبس الاحتياطي.. أدعو الله أن يكشف الحقيقة وأستر كرامتي.. كرامة طفلي أمام مستقبل مقتول بين قضبان السجن..

- اخرجي يا مجرمة.. يا قتالة القتلى.. عندك عرض على النيابة.

يفزعني صوت السجانة.. تدفعني خارج الزنزانة.. صاعقة تواجهني.. أفاق «عصمت» لحظات من غيبوبته ليصدر حكمه عليَّ وعلى طفلي بالإعدام.. حسنًا أنه قرر أنني لست زوجته.. مؤكدًا كل الاتهامات.. الأعين حولي تأكلني بسهام نارية وأنا البريئة أصرخ.. تضيع صرخاتي والسجانة تدفعني إلى داخل زنزانتي أنتظر قدري المحتوم.. أيام قليلة باقية على يوم المحاكمة.. بينما يقفز الموت قريبًا يحاصره بأجنحة.. الأحلام تموت حلمًا وراء الآخر.. الأنفاس تتلاشى و«عصمت» على فراشه.. في غيبوبته خائنًا.. ميت الضمير والعقل.. تاركًا سهامه القاتلة في قلبي بلا رحمة أو شفقة أو عدل.. كلانا يلقى الله قريبًا ظالمًا ومظلومة.. لحظات ويأتي من يحملني.. بل من يجرني إلى حفرة الموت.. «المشنقة».. اليوم حكم الإعدام.. يصعقني صوت السجانة وهي تفتح الزنزانة.. أنكمش في رعب.. تمتد يدها لتهدئ من روعي.. تعلن براءتي.. قالها «عصمت» في لحظاته الأخيرة قبل لقاء ربه.. عانقت الجميع.. عانقت القضبان.. عانقت الأشجار.. هرولت حاملة طفلي إلى الفضاء البعيد.

(تمت)

حب في البورصة

واجهتني مرآتي بحقيقتي وأنا أنزع ملابسي قطعة قطعة.. بينما راح جسدي يعلن التمرد والعصيان ورغبة جارفة أن أخرج ما بداخلي.

(1)

خمس سنوات جمع الحب بيني وبين «حازم».. وسط أحلام الجامعة والمستقبل والعش الهادئ وآمالنا في الغد المقبل.. قفزت السنوات وصحونا على واقع مرير وظروف مجتمع قاسية.. هذا الحب الذي سكن في ليل مظلم..

سلبت عقلي سيارة حمراء تعودت أن أراها أمام الفندق الذي أعمل به.. كان صاحبها «ماجد» أحد رجال الأعمال.. تعود أن يجزل لي العطاء كل ليلة عند دفع الحساب.. كان يتابعني بنظرات عينيه ذهابًا وإيابًا عند تقديم الطلبات.

أخبرني زملائي بهيامه وعشقه وسؤاله الملح عني في غيابي.. بل راح «ماجد» يراقبني في صالات الديسكو عندما كنت أذهب بصحبة خطيبي «حازم» في يوم عطلته الأسبوعية.

وتنفجر الأزمة بيني وبين «حازم»:

- لقد مللتُ حديثك عن الظروف.. العمر يجري وسط الرقص والحديث عن الحب.. حان الوقت لأن نستقر.. أشعر أنني أدفن شبابي وسط أوهام.

صدمته كلماتها.. نظر إليها في عتاب:

- وأحلامنا تحولت اليوم إلى أوهام.. والمستقبل وحبنا يا «شمس»؟

في سخرية:

- أحلامنا مريضة.. أوهام.. حبنا ضاع وسط ظروفك ومشوار لا ينتهي..
في حب وحنان:
- لكنني أحبك.. لم يعد سوى الشقة فقط.
مقاطعة وساخرة:
- الشقة.. عامان ولم تحل هذه الكارثة.
- أنا.. يا شمس.
ألقي بخاتم الخطوبة أمامه على المائدة.. أترك المكان دون أن أعبأ به أو بتوسلاته.. أبكي على أحلامي الضائعة.. أركض.. أقرر أن أكمل مشواري إلى البيت سيرًا على الأقدام.. وبينما كنت أعبر الطريق إلى ميدان التحرير.. توقفت سيارة حمراء جانب الرصيف.. صوت «ماجد بك» يناديني:
- آنسة شمس.. من فضلك.. انتظري.
أحاول أن أهرب.. أن أخفي دموعي وآلامي.. يخرج «ماجد» ويلح في النداء عليَّ.. أتوقف في مواجهته.. يطلب مني في رقة:
- أرجوكِ.. اسمحي لي أن أقوم بتوصيلك.. الوقت متأخر.
أنتزع من أعماقي ابتسامة:
- شكرًا ماجد بك.. أصل الطريق...
مقاطعًا:
- أرجوكِ.. تفضلي.
وركبت السيارة.. جففت دموعي وبينما هو لاحظ ذلك فراح يمازحني على أنغام أغنية شعبية في جهاز الراديو، بل راح يغني ويدعوني لمشاركته الغناء وضحكنا معا.. وغنينا..
لحظات تلاقت أعيننا ونحن نجلس معًا على مائدة بأحد المحلات بعد أن دعاني للعشاء ودون أدري وافقت وقبلت دعوته.
- أنا أسعد إنسان.. الليلة أجمل ليالي عمري وأنتِ بصحبتي.
فاجأني بكلماته ورُحت أخفي سعادة غمرت قلبي.. وابتسمت:
- أشكرك.. أشكرك ماجد بك.

في تودد:

- أرجوك.. أنا لست بك.. وأنا يسعدني كثيرا أن تكوني شريكة حياتي.

يشل تفكيري.. أخفي سعادة قد تنفجر داخلي.. يتوه عقلي.. لا أجد كلمات أمام المفاجأة.. دارت بي الدنيا.. تبدلت صورة باهتة لـ«لحازم» وأحلام ورقص وأوهام وشجار.. أماني وعجز.. مشوار مع اليأس.

- أين ذهبت يا شمس؟ نحن هنا.

يخرجني من استغراقي.. أنتبه:

- نعم.. لا.. أنا...

أتلعثم.. تتوه الكلمات بين شفتيَّ.. رُحتُ بعيدًا بينما راح «ماجد» يروي أحلامنا:

- سوف تكونين سعيدة معي.. كل ما تحلمين به سوف يكون غدًا يا حبيبتي تحت قدميك.. سعادة الدنيا معك يا شمس.

وصلت السيارة إلى ناصية الحارة التي أعيش فيها مع أمي المريضة وشقيقي الصغير «أحمد»..

فاجأني:

- السكوت علامة الرضا كما يقولون.. إذًا سأزوركم لأطلب يدك.

ابتسمت حالمة.. كدت لا أشعر بيدي الراقدة بين يديه عند مصافحته لي والتي هزَّت أشياء وأشياء داخلي.. رحت أتذكر كلمات قرأتها في إحدى المحلات..أحب نفسي أكثر لأني أحبك.. تسألني عن السر؟ لأنك جعلت عضوًا في جسمي ينبض.. اسمه القلب.. وأسمعه يهتف باسمك. رُحت أقفز درجات السلم.. قفز قلبي بين ضلوعي فرحًا.. قلقًا.. أحاسيس متناقضة حاصرتني..

ألقيت بنفسي على سريري حالمة بالغد.

(2)

عبرت أحلامنا الحدود.. قفزت.. حلقت في أحضان السحاب.. في باريس.. لندن.. روما.. رحلات.. هدايا.. أحدث الأزياء والموديلات العالمية.. سعادة الدنيا على الرغم من جرح العمر وحلم الماضي الذي راح ينشب مخالبه داخلي.

- هل انتهى الحلم؟! هل هذه فقط هي السعادة؟!

تساؤلات راحت تحاصرني وحيدة بين جدران الفيلا وسط سفر «ماجد» المستمر خارج البلاد لعقد صفقاته وأعماله التجارية في مكاتبه بأمريكا.. باريس.. الصين. ووجدت نفسي حين التقيتها أمام المرآة.. بزهرة ناضرة قد تحولت إلى جفاف.. لم أعد أطيق الملابس أو المجوهرات أو حتى جدران الفيلا.. مللت كل شيء.. يأخذني الحنين إلى أحضانه.. أتوق للحظة يغمد سيفه في جسدي.. يأخذني إلى أمواج الرغبة والدفء وأنا قابعة وسط جليد أمراض جسدي.. صرخت دون جدوى.. كل ما حولي أصبح كابوسًا مفزعًا لا ينتهي.. واجهتني مرآتي بحقيقتي وأنا أنزع ملابسي أمامها قطعة قطعة.. بينما راح جسدي يعلن التمرد والعصيان.. رغبة جارفة أن أخرج ما بداخلي.. صحوت على عجزه.. قناع قبيح ليس جسديًا فقط بل إنسانيًا كان يخفيه خلف هداياه وسياراته الفارهة ورحلاته وكل شيء.. اكتشفت ثروة «ماجد» التي كوَّنها وسط شعاره «الغاية تبرر الوسيلة» وميثاقه الأسود «كل شيء مباح»: الرشوة.. الخمر.. القوادة من أجل صفقاته.. بل أدى الأمر أحيانًا إلى خيانة الوطن لو طُلب منه البيع ليقبض الثمن.. كوارث أخلاقية دفعتني إلى المواجهة.. واجهته:

- خدعتني بالمال والثروة ولم أدرك حقيقة أخلاقك البغيضة أمام قناع الزيف.

ساخرًا:

- نحن يا عزيزتي في زمن الأقنعة.. أنتِ الأخرى لا بد أن تنزعي قناعك المزيف.. الحب.. الشوق.. أنا إنسان عملي ولا بد أن تكوني أنتِ الأخرى كذلك.. وهذا ما حدث حين قبلتِ زواجي.. لا مكان للحب.. المال فقط هو سر الحياة.

واجهته بسخرية أكثر:

- وإذا انتهت غيبوبة الهدايا والملابس.. أليس للجسد رغبات؟ أنا أريد رجلاً.. زوجًا يؤنسني في وحشتي ويشعرني بأنوثتي.

يضحك.. يقهقه:

- الرجال كثيرون (في امتعاض) فقراء.. شحاذون.. أما أنا (في كبرياء) أملك كل شيء.. عليك فقط بالكأس تلهيكِ والمال يؤنسكِ ويمتعكِ.

صرخت في وجهه.. بصقت بكل مرارة:

- أريد الطلاق.. أريد الطلاق (محذرة) حتى لا أضطر لخيانتك.
ببرود.. احتضنني:
- أنتِ مرهقة اليوم.. نامي يا حبيبتي.. (يناولني بعض الحبوب) خذي واحدة واهدئي.
دفعته بكلتا يديَّ.. سقط على أطراف كرسي.. رميته بأبشع الألفاظ.. أعلنت قراري له بأن الطلاق هو الحل.. جثا على الأرض تحت قدمي ذليلاً.. جثا على ركبته (خروفا) يطلب العفو والسماح.. توسل إليَّ ألا أتركه.. تحول غروره وغطرسته وسخريته وبروده إلى انهيار وغبار تحت قدمي.
وبدأ يترك عمله.. في حجرته رأيته غارقًا في زجاجات الخمر.. يائسًا وبائسًا بعد أن هربت شقيقته مع عشيقها وراح زوجها ينشر القصة وسط رجال الأعمال والسوق.. أصابته الحسرة بعد وفاة أمه حسرة على ما حدث.. عجزت الثروة أن تمنع كل المصائب التي أصابته وتساءلت في دهشة:
- هل انتقم القدر من رجل يبيع كل شيء؟ حتى الأجساد تباع في مرقصه الذي يمتلكه.

(3)

عدت إلى الرقص في صالات الديسكو بأحد المحلات المشبوهة بعد أن طاردني في كل مكان.. عشقت الرقص مع شاب يصغرني بسنوات كنت قد تعرفت عليه.. تطورت علاقتنا.. أدمنت الجلوس بين يديه.. قبلاته وعلى الرغم من الـ«بودي جارد» الذي حرضهم زوجي للاعتداء عليه لم أبالِ، بل رحت أذهب لآخرين في كل مكان.. وراح زوجي الغيور يطاردني ويراقبني في كل مكان أذهب إليه ويتولى رجاله إبلاغه بأخباري.
في توسل:
- أرجوكِ لا داعي للفضائح.. أنا أعرف كل أخبارك وعلاقاتك.. إن السوق لا ترحم.. الناس لا يرحمون.
في تحدٍّ:
- إذًا الطلاق.. الطلاق هو الحل.

يهرب بعيدًا عني.. لم يعد رجاله يطاردونني.. ربما ظننت ذلك.. حتى فاجأني ذات ليلة وأنا في أحضان رجل بإحدى الشقق.. لم أهتز.. بل صرخت في وجهه أن يتركني وشأني وإلا فضحته.. ولم يجد رجل الأعمال الذي يتلاعب ويلعب بالسوق بإشارة منه سوى أن انسحب مطأطئ الرأس وأغلق الباب خلفه حين فاجأه رنين المحمول يتابع حال أسهمه في البورصة.. تاركًا لي حرية الحياة التي اخترتها لنفسي.

(تمت)

الحصار

شقت ضحكاته مرارةً وهو يلعن هذا البلد.. فلم تعد للشهادات قيمة.. بل أصبحت المادة هي صاحبة الصولجان..

أغلق درج مكتبه في عصبية.. أحس بسائل ساخن في يده.. لم يبالِ بجرح يده وراح يمزق بعض الأوراق دون أن يفحصها.. ربما كانت بينها أوراق مهمة.. دفع كرسيه إلى الخلف.. انتزع حقيبته واندفع خارجًا.. لم يعبأ بنداء زميله «علاء»:

- رايح فين يا «صابر»؟

لم ينتظر حتى «الأسانسير»، بل راح يقفز درجات سلم الأدوار الأربعة كشاب في العشرين من عمره.. وكأنه يطأ بقدميه كلمات وتوبيخ رئيسه في العمل له دون سبب.. فقط لرغبة داخله في إذلاله وقتل عزته بنفسه وكبريائه.. «صابر» لم ينسَ أنه كان ذات يوم مالكًا لأهم ورش النجارة في المدينة.. وضع فيها كل رأسماله الذي جناه في سنوات عمره وما ورثه عن والده.. وحين أتت عليها النيران وأصبحت رمادًا تخلى عنه الجميع حتى أقرب الناس إليه وسقط طريح الفراش عامًا كاملاً عاجزًا مريضًا يقترض من الغرباء.. بينما تخلى عنه الأهل والأصدقاء.. إلا زوجته «حبيبة» لم تتخلَّ عنه..

في إصرار:

- أنا لازم أخرج أدوَّر على شغل.

«حبيبة» في حنان:

- انت لسه تعبان يا صابر.
شهور مرت ثقيلة مارس أعمالاً قاسى فيها مذلة ومهانة.. في الخمسين من عمره يشق حياته من جديد حاملاً مؤهله العالي (بكالوريوس تجارة) وفي عنقه زوجة مريضة وأربعة أولاد في مراحل التعليم المختلفة: ابتدائي وإعدادي وجامعة، خاصة بعد أن تخلف ابنه «جمال» في المرحلة الثانوية وأصر على الاتجاه للعمل الحر ليساعد والده المريض، وعلى الرغم من اعتراض «صابر» فإنه لم يملك الحل..
- الأجرة يا أستاذ.
دس «صابر» يده في جيبه وأخرج ورقة مالية أعطاها لصبي الميكروباص دون أن ينتظر باقي نقوده.. راح يطارده تأنيب رئيسه له دون رحمة أو شفقة.. وأحيانًا كان يواجهه:
- أنا كنت صاحب ورشة نجارة قد الدنيا.. أنا حاصل على بكالوريوس تجارة.
في انكسار تحتضنه وتخفف عنه «حبيبة» زوجته:
- لازم تستحمل.. ده حكم النفس على النفس.
يغطي وجهه ليواري قطرات ساخنة راحت تحرق وجنتيه..
- لا اعتراض يا رب.. سامحني وصبَّرني.. الحمد لله.
تدق الكلمات عنقه.. تزلزل كيانه وجوارحه.. تحاصره العيون.. رصاص يدوي وشظايا تتناثر حوله.. ساخرة من رجل مثله يقبل أن يصبح في نهاية حياته وبعد أن بلغ الخمسين من عمره موظفًا وبراتب زهيد.. يتصارع الماضي مع الحاضر حين ترمق عيناه نفسه وسط أحلام أولاده في حجرات باردة.. راقدة في أحضان الجوع والفقر والمرض.. تغطي أجسادهم ملابس بالية.. وخطوط متعرجة وصور مشبوحة على جدران ضاعت ملامح لونها مع ماضٍ قاسٍ دفعه لأن يترك بيته الكبير إلى شقة قديمة صغيرة في حي شعبي فقير.. وراح يضحك وهو يتذكر مقولة رددها الفنان عادل إمام في إحدى مسرحياته:
- بلد بتاعة شهادات صحيح.
شقت ضحكاته مرارة وهو يلعن هذا البلد، فلم تعد للشهادات قيمة.. بل

أصبحت المادة هي صاحبة الصولجان في يد جاهل أو لص أو تجار هذا العصر ممن عادوا ليغسلوا أموالهم.. حوَّلت اللصوص إلى أسياد مجتمع.. إلى قطط سمان.. حيتان.. حوَّلت العاهرة إلى سيدة مجتمع.. وجلس على الكراسي أنصار الشذوذ والمرضى النفسيون وشرار الناس.. مسخت المادة رجال الدين عبيدًا للسلطة.. ومسخت آخرين قردة وخنازير وثعالب.. عالم غريب.. سيرك كبير..

- وما الدنيا إلا مسرح كبير.. صدقت يا يوسف بك.

علت ضحكاته.. تنبه لما حوله من نظرات الركاب واتهامات بالجنون تحاصره.. ردد داخله:

- وإيه يعني؟ مين فينا اللي مش مجنون أو بيكلم نفسه أو بيضحك من غير سبب، بيلعن من غير سبب، بألف سبب، بيبكي كل سنين عمره حلو ومر.. خير وشر لمليون سبب؟!

تنبه من حوله من الركاب.. راحوا يهزون رءوسهم ويشفقون بنظرات على رجل راح يبكي بصوت عالٍ.. يشق الزحام والأيدي المتشابكة.. هاربًا.. مكسرًا كل القيود.. يلقي بنفسه خارج السيارة..

- حاسب يا حاج.. انت يا أستاذ..

لا يعبأ «صابر» بنداءات أحد.. هو قرر ألا يعود إلى عمله مرة أخرى.. لن يتحمل إهانات رئيسه أو نظرات السخرية أو الشفقة في عيون زملائه وزميلاته.. هو أخيرًا قرر أن يقدم استقالته في الصباح.

راح يجر قدميه.. يزحف على أعتاب منزله القديم.. تسيء إليه «حبيبة» وأولاده «حسني» و«عماد» و«سميرة» و«ندى».

تربت زوجته على كتفه في حب:

- انت ليه يا صابر مش عايزني أرجع الشغل؟

وهو يسعل.. يرميها بنظرة غاضبًا:

- قلت لك ألف مرة.. مفيش شغل ليكي طول ما أنا عايش.. بكرة أرجع أقف على رجلي من تاني.. كفاية عليكي تراعي أولادك وتدبري المعيشة الصعبة دي..

كفاية عليكي كده.

تتراجع «حبيبة».. فقد أصبح الحديث في هذا الموضوع من الأمور الشائكة.. وكأنها تذكره بحريق الورشة.. بعجزه.. بفقره.. تسرع تعد له كوب الشاي الذي يحبه.. وتفتح له الراديو على صوت «أم كلثوم»..

- فكروني عينيك بأيامي اللي راحت..

اليوم لا بد أن يحسم قراره؛ فهو يواجه أمرًا لا يُحسد عليه.. كرامته التي وطئها رئيسه بقدميه.. زوجته وأولاده الذين هم في أمسّ الحاجة إلى لقمة العيش وراتبه مهما كانت ضآلته.

في الصباح.. كان يخطو خطوات ثقيلة نحو مقر عمله.. تصارعه الأفكار.. تقديم الاستقالة وإلقاؤها في وجه رئيسه.. الجلوس في خنوع على مكتبه ليكمل مسيرة حياته.. شكوى ابنته من عدم قيامه بدفع مصاريف الدروس.. حاجة «حسني» طالب الجامعة لشراء أهم كتاب له في كلية الهندسة.. وشكوى زوجته «حبيبة» من ارتفاع أسعار الخضر واللحوم.. شكاوى تحاصره وطلب الاستقالة يطير بينهم وأصوات تحرضه على الثورة.. بكاء زوجته.. توسل أبنائه.. صراخ رئيسه.. بصيص نور يبدد الظلمة حوله.. حول فراشه وهو يرى ابنته «سميرة» في بالطو طبيبة والسماعة حول عنقها.. و«حسني» أمام ماكيت عمارة كبيرة.. صراخ وزغاريد.. أشباح وورود وطيور ووحوش.. حصار لا ينتهي.

(تمت)

أجنحة بيضاء

قفزت قدماها.. لا تلامس الأرض.. هي تطير بأجنحة بيضاء وهو بجانبها.. يضحكان في سعادة وهما يسبحان في الأفق البعيد.

كعادتها استيقظت من نومها.. استغفرت ربها واستقبلت صباح يوم جديد بسعادة وحب.. نظرت بجانبها لم تجده.. أدركت أنه كعادته يقرأ كتاب الله في حجرة المسافرين.. توضأت وصلت الصبح ثم أسرعت إلى المطبخ لتعد طعام الإفطار لزوجها الحبيب الحاج «أبو علي».

من وسط الصالة راحت تناديه بصوتها العذب الذي لا يخلو من حلاوة يعشقها.. وكم غنَّى معها في الليالي المقمرة:

- يا حلو صبح يا حلو طل.. طعام الفطور يا أبو علي.. طعام الفطور جاهز يا غالي.

كررت أغنيتها.. نداؤها بلا جدوى.. لا يرد.. أسرعت إلى حجرة المسافرين وهي تضاحكه:

- لازم يعني آجي لحضرتك؟ ماشي يا سيدي.

دخلت الحجرة.. تصفحت عيناها جدرانها.. الأريكة.. السرير.. مكانه الذي تعوَّد الجلوس فيه.. لم تجده.. تشتم رائحته في المكان.. أحست بشيء غريب يشق صدرها.. قلب يختنق بين ضلوعها.. تنبهت إلى ملابسها السوداء.. دارت بها الحجرة.. أحست بزلزال يهز أركان جسدها.. غراب أسود يحاصر المكان يطبق على دنياها.. تفيق من استغراقها على حقيقة سوداء.. أن زوجها قد مات بالأمس..

صرخت:
- لا.. لا يا أبو علي.. مش ممكن تفوتني لوحدي.. إحنا ما اتفقناش على كده.
راحت تحطم ما حولها.. تبحث عنه في دولاب ملابسه.. في أركان حجرتها.. تحتضن صورته باكية.
يستيقظ «علي» ابنها البكري.. طبيب.. يسمع دقات الباب.. يفتح ولا ينتظر.. يسرع إلى أمه وخلفه شقيقه «محمود» وشقيقته «آمال» اللذان كانا يتسوقان خارج البيت.. يسرع الجميع إلى أمهم.. تحتضنها «آمال» الابنة الوسطى، مهندسة ومتزوجة ويعمل زوجها بالخارج.. في حنان:
- ماما.. كفاية.. أرجوكي.. علشان صحتك.
يقبِّل «محمود» الابن الصغير يديها.. و«محمود» آخر العنقود.. طالب بكلية الفنون الجميلة.. مواسيًا:
- ده قدرنا يا أمي.. لا اعتراض.. وبابا في الجنة دلوقتي.. لازم نفرح له.
تبكي «فتحية» وهي تحتوي أولادها الثلاثة بيديها.. خمسة وأربعون عامًا هي حياتها مع زوجها الحبيب التي لا يروق لها أو له سوى أن تدلله وتناديه بـ«أبو علي» حتى قبل أن يرزقهما الله بالابن الكبير «علي» فرحتهما.
يغني لها وهو يناديها:
- أكلك منين يا أم علي؟ أكلك منين؟!
في خجل.. تضع يدها على شفتيه:
- يا راجل عيب.. البت «آمال» جاية علينا.
في جدية لا تصدقها:
- يا ولية.. أنا أقصد طبق «أم علي» الحاجة الحلوة يا.. يا حلوة.
يضحكان وحولهما أولادهما في سعادة.. نجاحات «علي» و«آمال» و«محمود».. رقته وحنانه لها ولأولاده.. ثم رحيله فجأة عن حياتهم.. قصم أظهر الجميع.. كان عصب حياتهم.. كان يعمل نهارًا في شركة الحديد والصلب ثم يعود ليكمل ليله في محل الأدوات المنزلية الذي يشاركه فيه «الحاج متولي» من أجل المعيشة الصعبة وتعليم الأولاد بالجامعة.. وحين أحيل إلى المعاش وتوفي

«متولي» صديقه وشريكه.. أصبح المحل ملكه.. كان أبًا دءوبًا تعوَّد أن يصحو للإفطار مع أولاده ثم الذهاب إلى محله.. لا تفوته مناسبة إلا ويسعد الجميع بهداياه وفكاهاته وليالي السمر السعيدة.

يخيم الليل بسكونه القاتل.. تمتد يداه تحتويانها.. تحتضنه.. تداعب أصابعه.. شعرها الطويل لم تهمله يومًا على الرغم من خمسة وأربعين خطًا راحت تتعرج في حياء على وجهها.. راحت تغوص في أحضانه.. اعتدلت في حب.. قبَّلته.. أخذته في أحضانها كطفل طال غيابه عن أمه.. في سعادة.. في سعادة:

- تعالى.. أنا برضه كنت متأكدة إنك عمرك ما هتفوتني لوحدي.. حمد الله على سلامتك يا سيدي.. يا تاج راسي.

- إخص عليكي يا أم علي.. وانتي تصدقي إني أسيبك لوحدك في الدنيا دي؟

- أيوه يا أبو علي، ده انت حبيبي وابني وأبويا.. عمري كله.

- وانتي كمان يا فتحية حبيبتي وبنتي وأمي.. حياتي كلها.

تنبهت لملابسه البيضاء ووجهه المنير.. أصابها دهشة لبعض الوقت.. سبحت في عينيه.. سألته في رقة:

- وشك منور.. ولبسك أبيض.. انت كنت رايح فين؟!

- مهما روحت يا أم علي.. دايما هاكون جنبك.

مقاطعة في حب:

- خليك جنبي.. هات إيديك أبوسها.. احضنّي يا أبو علي.

لا تكاد تلمس يديه.. تختفي يداه.. تختفي صورته.. تصرخ.. تناديه في لوعة.. صدى صرخاتها يشق الفضاء:

- أبو علي.. أبو علي.. أبو علي.

دارت حول نفسها وسط كآبة الحجرة.. والليل المظلم يطبق على أنفاسها.. ضوء أبيض يشق الظلمة.. أبواب وأبواب تتفتح.. هناك تتراءى أمام عينيها صورته.. بعيدًا.. يناديها.. قفزت قدماها.. لا تلامس الأرض.. هي تطير بأجنحة بيضاء.. وهو بجانبها.. يضحكان في سعادة وهما يسبحان في الأفق البعيد.

(تمت)

غروب

» ١٥ - غروب

ما زالت كلمات العائد من قبره تغزو حياتها.. تقلب موازينها.. تشق داخلها حفرًا وأنفاقًا.. دموع الألم تحاصرها..

اقتحم حياتها فجأة.. بشيء من الحسرة والندم عاتبت الأيام على أنها لم تلقَه في طريقها في الماضي.. بل اتهمته بحضوره إلى حياتها متأخرًا.. وعاش معها الحلم مؤكدا أنها هي التي تسرعت..

في سخرية:

- كنت عاوزني أستنى وأبقى عانس.. من أجلك تزوجت رجلاً لا أحبه.

- والرجل الذي أحبه قلبك كما رويتِ..

- ندل.. تعلب.. خدعني باسم الحب.. وتزوج امرأة أخرى.

- لماذا؟ ألا نبدأ من جديد؟

- مجنون أنت.. إنه المستحيل.. أصبح كل منا له أسرة وأولاد.

- إذًا.. دعينا نحلم.. أنت في عربة «البريمو» وأنا في «الترسو» وليسِر القطار دون لقاء.

ساخرة:

- لا فائدة.

شاركته الحلم.. جمعتهما الأحاديث عبر الهاتف.. خطابات ورسائل.. روت له ما يعذبها.. أخرج «مشرطه» وهو جراح ماهر.. راح يداوي جرحها.. يقنعها بالوقوف أمام المرآة لترى نفسها من جديد معه.. مؤكدا لها أنه لا غروب.

رنين الهاتف ينتزعها من مخدعها..
دون أن تعرف الرقم الذي يطلبها.. ألقت بالهاتف بعيدًا على أحد كراسي الفوتيه.. اعتدلت في مواجهتها.. مدت يدها لتخرج بعض السجائر التي تركها زوجها في علبة تحت وسادته.. تناولت واحدة وراحت تدخن في نهم.. قامت لتواجه المرآة في تحفز.. راحت تمسح بيدها محاولة أن ترى معالم وجهها.. تلاشت الصورة وسط خيوط الدخان.. سخرت منها.. ما زالت كلمات العائد من قبره تغزو حياتها.. تقلب موازينها.. تشق داخلها حفرًا وأنفاقًا.. دموع الألم تحاصرها..
ساخرة:
- يا له من رومانسي.. يعيش في أحلام مستحيلة بعيدة عن الواقع المرير.
تفاجئها كلمات صاحب الدار..
ساخرًا:
- انتي لسه بتقفي قدام المراية؟ إياكي تكوني فاكرة نفسك لسه صغيرة.. بصي شوفي عيالك حواليكي.
تتراجع مرتعشة.. مضطربة.. تصطدم بأطراف السرير.. تنتابها حالة ضحك هستيرية تعقبها نوبة بكاء.. حالة من التهكم والسخرية من اثنين، أحدهما ملك الجسد وجزءًا من العقل، ويملك حصارها.. والثاني يتسلل بمشاعر طفل داخلها.. يحاول فتح أبواب قلبها التي أغلقتها منذ زمن.. أحدهما نجح بالفعل أن يدفعها بين أطفاله باسم الشرع والقانون.. والآخر يدفعها للعودة طفلة بضفائر.. بروح تقفز.. بقلب ينبض.. أحدهما ينعم بمتعة جسدها بوجودها في حظيرته.. والآخر يسلب مشاعرها.. يأخذها بعيدًا عن واقعها.. يعود بها إلى الماضي ويصدمها الواقع.. يسعد بوهم الحب في عينيها.. في روحها حوله.. وربما يرغب في بعض من الجسد في حلم مستحيل.
رنين الهاتف يدق جوارحها ويفزعها مرة أخرى.. تلقي بنظرة امتعاض على الهاتف.. بل تكاد تنتزعه وتلقيه من أقرب نافذة.. هي لا ترد ولن ترد.
ربما كانت تشعر بارتياح وهي تبوح بعذاباتها مع الآخر أكثر مما تبوح بها مع

حارس البيت.. الآخر كان يفتح داخلها وحولها آفاقًا لحياة رقيقة.. كانت تشعر بجواره بأنها طير يرفرف.. وفي البيت.. عصفور حبيس في قفص الزوجية.. يتسلط حارسه باسم الشرع والقانون.. صاحب الكفة الأكثر مالاً:

- انتي روحتي فين يا فريدة؟ سرحانة في الشغل؟

تستدير معطية له ظهرها والدموع في عينيها:

- شغل؟ كل حاجة عندك الشغل؟

يواجهها ساخرًا:

- إيه ده؟ دموع كمان؟ خير؟ (غاضبا) قلت لك قبل كده وكررت الكلام ده.. سيبي الشغل.. ريحيني وريحي نفسك.

تهرب بعيدًا عنه.. روح هائمة خارج حدوده.. حيث الهواء النقي.. صدر حنون.. سعادة تراها في عيون الآخرين وسط كلمات الغزل والرقة.. حنان الأبوة وحنان الأمومة أحيانًا أخرى.. روح هائمة باحثة عن حلم مفقود داخلها أو حولها.. تأمل أن يتحقق.. وتتحقق معه ذاتها.. ربما يكون الخلاص من اثنين.. من راحت تحلم به ومعه حلمها المستحيل مع عجلة الزمن التي لن تعود.. ومن حارس البيت.

رنين الهاتف يختلف هذه المرة.. ليس من هذا ولا ذلك.. إحدى زميلاتها تبلغها بترقيتها رئيسة لأهم أقسام الشركة.. تقفز في الهواء.. تراقص المحمول في سعادة. وفي الصباح.. راحت تراجع حساباتها.. ومن البداية لم تعد تقبل من صنعها طفلة بضفائر.. راحت تبدأ به تصفية حساباتها.. منعته من الحديث أو الاقتراب منها.. تراجع بائسًا.. ساخرة أكملت يومها على أنقاضه.. وكان قد ألقى تحت أقدامها بضع كلمات ساخرًا:

- الآن حققتِ أحلامك.. بعد أن داويت جرحك وحطمتِ مرآتك العجوز.. أصبحتِ امرأة بكرًا تحمل اليوم «شارب» السلطة.. انتهى كل شيء.. لا أملك سوى أن أقول لك وداعًا..

رنين الهاتف.. ترتعش دقاته.. في يأس كان حارس البيت قد تعود ذلك وتلاشت سطوته المادية، أو على الأقل تراجعت وتسلطت عليه بل وحكمت، وعليه

واجب النفاذ.. ربما تمنحه شعار الرجولة أمام الناس.. زوج «ديكور» تعيش معه حياتها عرضًا وطولاً.. سخرت من الغارقين وهمًا في نظرات عينيها.. أو ابتسامتها الساخرة.. هي أدركت أن قلبها لم يعد له مكان في عالم صنعته بيديها. واكتفت بأن تسمع كلمات الحب في الأغنيات وتراه في أعين الآخرين الذين تراهم يحملون خيبة العصر.

لم يبقَ في ذاكرتها سوى بضعة مشاهد كانت تعيشها وهي ترى بعض الأفلام الرومانسية في سينما «علي بابا» وهي في ريعان شبابها أو ربما في بعض رحلات الجامعة.. لقد اكتفت «فريدة» بالجلوس في حديقة الحب بين أولادها الصغار. وحتى الحلم الذي كانت تراه منذ أن شق «يحيى» حياتها وهو يحلق بجناحيه حولها.. لم تعد تفكر في حل رموز هذا الحلم المتكرر، بل قتلته في مهده.. انتزعته من عالمها.. راحت تنهي حالة الصراع داخلها بين الشد والجذب ناحية الامتزاج والتنافر.. الاستسلام على صدره والهروب من جنته.. تغيرت الأماكن.. هي على كرسي رئيسة أهم الأقسام بالشركة.. وهو ما زال قابعًا في الأرشيف.. آخر مكان في الشركة.. بائسًا.. يائسًا لم يعد يأمل بالحديث معها بعد أن غالت في كبريائها.. مؤكدة سخريتها من مشاعره.. من كلماته الرقيقة.. حين كان يغازلها:

- تعرفي إنك جميلة النهارده.

بالأمس كانت تحلق بجناحيه.. تغرد كالطيور.. اليوم تفاجئه غاضبة:

- روح شوف شغلك أحسن.. جهز الملفات اللي طلبتها منك.

تشق كلماتها جدار قلبه.. تحفر جروحًا عرضًا وطولاً.. يقتله تأنيبها له لتأخره.. صدها له.. تفر عيناه بعيدًا.. أصابت هاتفه برودة.. انتابته رعشه زلزلزت كيانه.. استسلم لواقعه.. وراح يطرد صورتها رويدًا رويدًا من خياله.. بل راح يعيدها إلى ما كانت عليه إلى ماضٍ محال أن يتحقق.. استسلم للحظات غروب قاسية.. بينما هي راحت تبحث عن عالم جديد يشغل مكانها الجديد في رغبة طموح إلى المزيد من الترقي.. جمع المال.. التسلط.. بل راحت تتسلط وتقفز درجات السلم يومًا بعد يوم.. إلى أعلى.. إلى أسفل.. مهرجًا يقفز.. يُضحك الآخرين في أسى.

(تمت)

